٣٩

مجلة
روايات أحلام

ابنة الريح

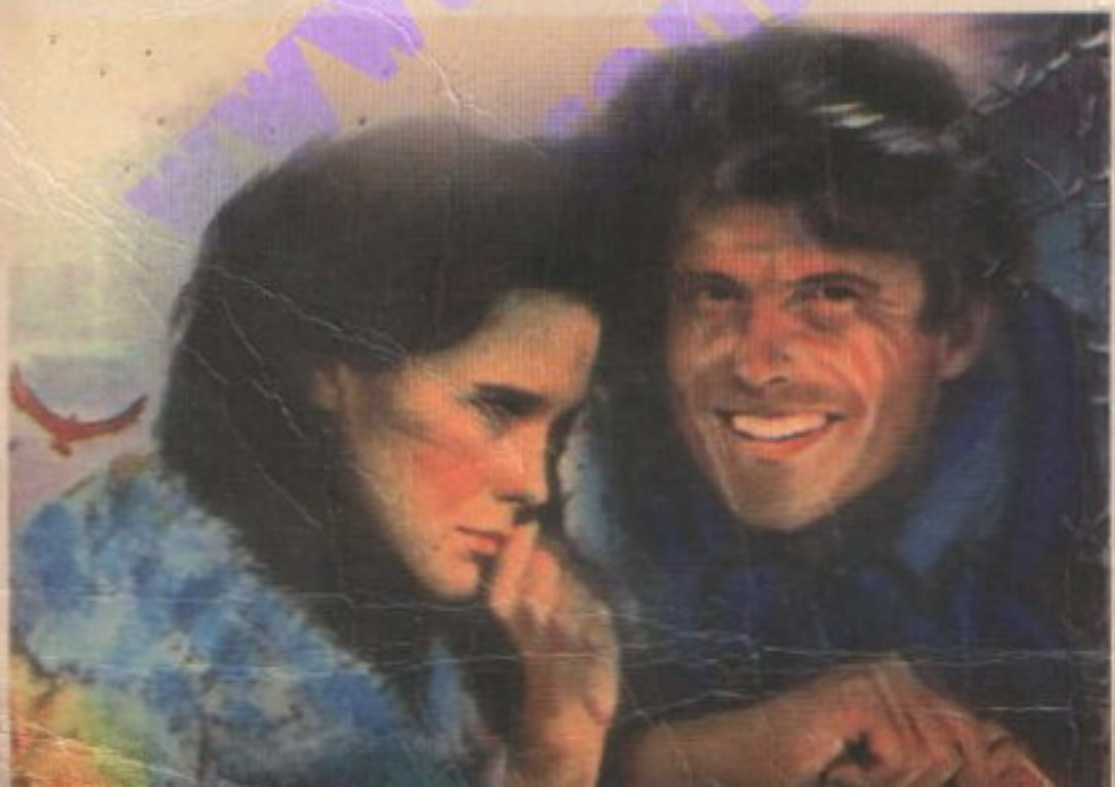

www.liilas.com

مجلة روايات أحلام

ابنة الريح

.. ويشق بصيص النور حجب الظلام، فتولد المعجزة وتستيقظ الحياة.. أيمكن للحب أن يتسلل هكذا إلى النفوس؟

لم يكن ما عرفته ماثي بروكتر عن تريفور ستار مشجعاً فقد اكتشفت أن الشخص الذي وضعت تحت وصايته، ليس فقط قاسياً ومتكبراً كالشيطان كما قيل لها، بل هو رجل لا رحمة في قلبه، لا يتوانى عن رمي مصالح الآخرين عرض الحائط في سبيل مصالحه.

لكن جاذبية تريفور كانت قادرة على إغواء العصافير على الشجر، فكيف لفتاة بريئة ساذجة المقاومة؟ وهل يمكن لشعاع الحب أن يخترق ظلام نفسه في النهاية؟

لبنان ٥٠٠ ل.ل.	الإمارات ٦ د.	مصر ٤ ج.	ليبيا
سوريا ٥٠ ل.س.	قطر ٦٠٠ ر.	المغرب ١٥ د.	اليمن
الأردن ١ د.	البحرين ٦٠٠ ف.	تونس ١,٥ د.	السودان
الكويت ٥٠٠ ف.	السعودية ٧ ر.	عمان ٦٠٠ ب.	العراق

١ ـ أين المأوى؟

كانت مائي كمعظم الأولاد، وربما أكثر منهم جميعاً، بحاجة إلى ذلك الشعور «بالانتماء»... ففي أعماق قلبها فتاة محبة، عاطفية حتى الجنون، وكانت طبيعتها الدافئة المحبة، تتوق إلى شيء أو إلى شخص تستطيع أن تمنحه عاطفتها.

من الغريب أن معلمة الكيمياء، التي لا تنظر إلى الحياة والإنسانية إلا بمنظار التفاعلات الكيماوية، أن تكون هي من قدمت ملاحظات دقيقة عنها، وذلك خلال اجتماع لم يدم أكثر من عشر دقائق بين المعلمات حين بُحثت أوضاع التلميذات النفسية بصراحة، إذ قالت بطريقتها المعروفة:

ـ ستكون مائي بروكتر حين تكبر إما تعسة بشكل عنيف أو سعيدة إلى أقصى حد. لديها مخزون كبير من العاطفة، وهو رهن بما ستلقاه في حياتها. فهل ستهب يا ترى هذه العاطفة لمن يستحقها أم لمن لا يستحقها؟

سألتها معلمة اللغات:

ـ ألا ينطبق هذا على الناس جميعهم؟

ـ اوه.. لا، إن معظم الناس يوزعون عاطفتهم قليلاً، حتى إذا ما فشلوا في اتجاه معين، يكون أمامهم فرصة للتعويض في اتجاه آخر.. لكن مائي ستضع عاطفتها في اتجاه واحد... فإما

أن تصاب بكارثة أو تُمنى بإحدى أروع قصص الحب. . . إنه لمن المؤسف أن تكون جميلة. . لأنها بهذا ستجذب الأنواع السيئة إضافة إلى الجيدة منها على حد سواء.

وعندما قرع الجرس، إيذاناً ببدء الفصل التالي، لم تعد أي من المعلمتين مهتمة بها.

لكن معلمة الكيمياء كانت أقرب إلى الواقع والحقيقة من معلمة اللغات، أو منها هي نفسها. فهي فعلاً تملك مخزوناً من العاطفة والحب. . ولم يكن لديها من توزعهما عليه.

إن أول ما يلفت النظر إليها، عيناها الواسعتان السوداوان اللتان تحيط بهما أهداب كثيفة، وشعرها الأسود الناعم السميك البالغ حدّي كتفيها والممتد منه غرة قصيرة على جبهتها العريضة. أو وجهها المائل، في مثل هذا العمر إلى استدارة طفولية.

أما بشرتها فناعمة بيضاء، وأما فمها فممتلىء أحمر. وأنفها قصير متحد، لطالما كرهت افتقاره إلى الطول الرومانسي، لكنه كان حقاً ينسجم مع وجهها الدائري.

وتنهدت ماثي.

كانت أحياناً تعتقد أن أجمل ما في الوجود أن يكون للمرء جذور عائلية طبيعية وبيت ينتمي إليه. لكن بعد أن عاشت يتيمة منذ السادسة من عمرها مع العمة كارولين الصارمة، أصبح انطباعها عن العائلة ضبابي إلى أقصى حد.

تذكرت بضع مناسبات، رأت فيها عمتها كارولين التي كانت امرأة لا تعرف الابتسامة، مستقيمة إلى حد التزمت، ذات شعر رمادي وأخلاق شرسة، حتى يكاد المرء يحس على غير

www.liilas.com

إرادا منه أنها تطبق القوانين دون رحمة، فقد تؤمن بأن أموراً مثل الدوش البارد والاستيقاظ المبكر أفضل ما في الوجود لا لشيء إلا لأنها أمور غير مرغوب فيها.

كانت تدفع دون تردد أو حماسة تكاليف تعليم ماثي في أفضل المدارس الداخلية، لكنها لم تكن تحاول إخفاء عدم اهتمامها الشخصي بها. وكانت في فترات العطلات ترسل ماثي لقضاء أوقات صحية، ولو مملة في مزرعة تملكها تبعد على الأقل مئات الأميال عن مكان سكنها.

ولأنها شابة طبيعية، كانت سعيدة خلال فترات الدراسة، وأسعد في العطلات.. لكن أحياناً كانت تستولي عليها سوداء ممزوجة بما يشبه الذعر... فليس لها مكان في العالم قد تدعوه ببيتها أو موطنها، وليس لها من تنتمي إليه حقاً.

ارتدت ماثي في مقعدها المتروي في القطار وهي تراجع موقفها. ثم راحت تتساءل عما إذا كان عليها أن تبلغ من حولها في المقصورة أن الرجل الذي يتحدثون عنه بهذه الصراحة ما هو إلا هو وصيها.

ربما كانوا ينظرون إليها على أنها صغيرة جداً، لكن يجب على الناس ألا يخوضوا أحاديث سخيفة كهذه أمام غرباء، خاصة إذا كان هذا الغريب صغيراً.

لم يكن حديثهم محرجاً، بل مخيفاً. فهم يصورون الوصي، الذي تقصده لتكون تحت رعايته، وكأنه شخصية مخيفة.. إذ قالت السيدة ذات القبعة الوردية:

- شرير.. هذا ما قد أصف به تريفور ستار.. شرير لكن بطريقة جذابة طبعاً.

ردت المرأة الحادة النظرات في الزاوية:

- يذكرني دائماً بأحد كرادلة العصور الوسطى. أحد أمراء الكنيسة، ألا تعرفينهم، يبدون كالقديسين، لكن لا سبيل إلى خداعهم.. إنه من طراز يثير الاهتمام.

قاطعهما الرجل الأحمر الوجه:

- ليس لتريفور طراز.. إنه فريد في نوعه، وهذا من حسن الحظ. ولا تكوني حمقاء سيبل بهذا الحديث عن الكاردينالات والقديسين.. فلا يكاد الرجل يكون مؤمناً.

- وهذا ما قلته بالضبط.. إنه يبدو قديساً، لكنه دنيوي. وهذا ما عنيته بقولي «لا يمكن خداعه» يا جيس كما أنني مؤمنة بأنه يشبه كاردينالاً إذ تجد حوله هالة من السلطة.. وهو إلى ذلك شرير، ويعرف كيف يحصل على ما يريد، دون الاهتمام بالوسيلة. كما أنه متكبر! يا إلهي! لم أعرف قط رجلاً أكثر تكبراً منه، أو أكثر برودة.

رد جيس موافقاً:

- اوه.. أجل، إنه متكبر دون شك... متكبر كإبليس!

- لا تنس أن إبليس هوى.

فسألها جيس:

- هوى؟ من هو إبليس إذن؟

- اوه جيس.. حقاً! تجعلني أخجل منك أحياناً. لست أدري من أين لي أخ جاهل مثلك.. ابليس هو ملك الشياطين طبعاً.

- حسناً، إنه اسم يناسب تريفور.

وضحك بصوت مرتفع، ساد بعده صمت ذاهل، ولم تلبث

أن وجدت مائي وجهها ينضرج خجلاً فقد أحست أنها تتجسس عليهم. ما الذي جعلها تنصت إلى حديثهم؟ لكنها لا ترغب في أن يوصف وصيها بإبليس، حتى وإن كانت لا تعرفه.

قد يكون كما يصفون فهي لا تستطيع المعرفة لأنها لم تره من قبل.. لكن ليس من حق هؤلاء قول هذا أمامها، فسارعت تقول:

- كلمة ابليس تعني كذلك «الوضّاء».. كان ابن «اورا» إلهة الصباح عند الإغريق.

فعلق الرجل الأحمر الوجه:

- حسناً.. ها أمامنا شابة مثقفة.. كم من المعلومات المهمة تختزنين تحت شعرك الأسود؟

- ليس الكثير.. لكنني أعرف هذا لأننا درسنا في المدرسة رواية الفردوس الضائع، وتلقينا معلومات كثيرة عن المعاني المختلفة لكلمة «ابليس».

- لكنك يا عزيزتي لا تعرفين شيئاً عن إبليسنا المحلي.. فلا ذكر لوجوده في المدرسة، هه؟

وعاد إلى الضحك حتى صاحت به شقيقته متصنعة التزمت:

- جيس!

فقالت مائي ببرود:

- إذا كنت تعني بإبليسكم المحلي، السيد تريفور ستار فسأعرف عنه الكثير لأنه وصيي وأنا في طريقي إلى الديان ستون الآن.

- وصيك؟

صرخت كلا المرأتان بذعر أكثر منه دهشة بينما سارع

www.liilas.com

الرجل يقول:

- يا إلهي!

فضحكت مائي مع شيء من الريبة، ووجدت نفسها ترتجف:

- أهذا غير طبيعي؟

فقال الرجل:

- إن كان تريفور ستار وصيك.. فأنا أقول «أجل»!

سارعت المرأة تروعه:

- صه يا جيبس!

التفتت إلى مائي:

- هل أنت ابنة أخيه أو أخته أو شيء من هذا القبيل؟

- ليس في الواقع.. فنحن لسنا قريبين أبداً. إن المرأة التي عُهدت رعايتي إليها هي أخته غير الشقيقة.

بدت الحيرة على وجوه الموجودين فضحكت وأكملت:

- الأمر ليس صعباً، فتلك المرأة كانت زوجة شقيق أمي، وحين مات والداي رعتني حتى مماتها، أما السيد ستار فأخوها، لا أدري إن كان من جهة الأم أو من جهة الأب. وأنا لا أعرفه أبداً، كما أنني لم أعرف العمة كثيراً، إذ ترعرعت في مدرسة داخلية، ولم تكن تستقبلني في منزلها خلال العطلات.. بل فضلت أن ترسلني إلى أناس في مزرعة تملكها.

فقال الرجل:

- لو عُهدت إلي رعاية فتاة مثلك، لأحببت أن تكون في بيتي.. تباً إن هذا لمخز!

- لا أظن أن العمة كارولين أحبت الأولاد.

- والآن بعد موتها تولى وصايتك تريفور ستار.

- أجل وأنا ذاهبة الآن لقضاء العطلة في قصره للمرة الأولى..

- وهل جئت من مكان بعيد؟

- أجل، أسير في القطار منذ ليلة البارحة، فمدرستي الداخلية تقع شمال بنسلفانيا، وقد وصلت إلى بتسبرغ أولاً ثم انتظرت القطار المحلي القادم إلى هنا.

- هل ستنزلين في فورت واين أم في غراي؟

- قال المحامي إن علي النزول في غراي، لأنها الأقرب إلى إنديان ستون.

- انديان ستون تبعد محطتين عنها. ستنزل نحن في فورت واين، إذا شئت مرافقتنا، تدلك على الطريق الصحيح.

قاطعته أخته:

- هراء... لا شك في أن هناك سيارة بانتظارها.. وإذا قيل لها توجهي إلى غراي فلا داعي إلى نزولها في فورت واين. يجب أن تبدأ منذ الآن بإعطاء صورة جيدة عن نفسها.

- أجل.. هذا صحيح.. المسكينة.

- لماذا؟ أعني لماذا المسكينة؟ يبدو أنكم لا تحبون وصيي أبداً؟

- إنه رجل غير محبوب في المنطقة. فهو متحفظ.. ولا يشارك الناس همومهم.

وبدأ القطار يخفف سرعته حتى توقف أخيراً.. وبدأ الركاب الثلاثة يجمعون حقائبهم استعداداً للنزول.

قال لها الرجل:

www.liilas.com

- غراي هي المحطة التالية، ستصلين انديان ستون في الساعة الخامسة تقريباً. أتمنى عليك زيارتنا حين تأتين إلى هنا... فنحن من عائلة ستوكمان. اسألي عن القصر الأبيض منزلنا، وسيرشدك إليه أي إنسان في المنطقة

فشكرتهم ماثي، وما هي إلا دقائق حتى انطلق القطار من جديد وعادت إلى التكور في زاوية المقعد تفكر.

عندما اقترب القطار من غراي، أنزلت حقيبتها عن الرف ووقفت أمام النافذة. وقبل أن يقف نهائياً كانت قد قفزت منه إلى الرصيف.

لكنها لم تجد أحداً ينتظرها. فتقدمت ببطء نحو البوابة الصغيرة التي تمثل حاجز التذاكر، الحاجز الفاصل بين البلدة وبين العالم الخارجي، فتبين لها أن ليس هناك من مركبة تنتظرها كذلك، ولم ترَ إلا عربة مزارع، هي على ما يبدو لمزارع ينتظر أن يحمل إليه القطار بضائع. ما إن وصلت إلى البوابة، حتى ترك شاب حاد النظرات عمله في كنس رصيف المحطة، ومد يده ليتفحص تذكرتها، فسألته:

- هل حضر أحد إلى هنا من انديان ستون اليوم؟

- هه؟

- أنا ذاهبة إلى انديان ستون. إلى منزل السيد تريفور ستار، فهل سأل أحدهم عن موعد وصولي؟

- كان عليك أن تنزلي في فورت واين للوصول إلى انديان ستون.

- لكن طلب مني أن أنزل هنا.

بدا أن الشاب فقد الاهتمام بها، فالتفت يراقب انطلاق

القطار مجدداً من المحطة. وبعد انتظار قالت له:

- كم تبعد سيراً؟

سأل بعياء:

- إلى أين؟

- إلى انديان ستون.

- مسافة قصيرة.

- أتعني ميلين أو ثلاثة؟

أشار الفتى بيديه دلالة عدم المعرفة. فالتفتت حولها يائسة، فشاهدت المزراع يقترب وهو يجر عربة محملة بالبضائع، فاستدارت تسأله:

- هلاّ قلت لي كم تبعد انديان ستون عن هنا؟

- خمسة أميال تقريباً.. أيها الشيطان الصغير.

www.liilas.com

صمتت بضع ثوان قبل أن تعرف ماثي أن الجملة الأولى وُجهت إليها أما الثانية فكانت لديك رومي كبير أطل من فتحة فوق البضاعة التي يجرها المزارع وتقر اصبعه بمنقاره.

- هل أنت ذاهب في ذلك الاتجاه..؟

- آسف يا عزيزتي، فأنا أقصد الاتجاه المعاكس تماماً. واليوم هو الجمعة، موعد معظم أعمالي، ولن أستطيع الابتعاد عن طريقي.

- بالطبع لا. لا أود إبعادك عن طريقك.. قد أجد من يوصلني.. لكن أي طريق أسلك؟

- اسلكي هذا ثم انعطفي بعد نصف ميل يساراً وصولاً إلى مفترق الطرق وبعد ذلك خذي يمينك فتصلي مباشرة إلى انديان ستون.

- أهناك قرية غير المنزل؟
- ألست تقصدين القرية؟
- لا.. أقصد منزلاً كبيراً.. منزل السيد ستار.

انتزع المزارع قبعته ومسح جبينه بمنديل كبير.

- وهل أنت ابنة أخت مدبرة المنزل؟
- لا.. فأنا الموصى بها لتكون تحت رعاية السيد ستار.. لكنني لا أعرف المكان. لذا أنا مضطرة للسؤال عن الطريق.
- السيد تريفور ستار وصيك؟ حسناً.. ما رأيكم بهذا؟ لم أكن أعلم أنه يرعى فتاة شابة.
- لقد أصبحت تحت عهدته منذ فترة وجيزة.. فنحن لم نلتق من قبل.
- ألم تريه قط؟
- قط.
- ما رأيكم بهذا؟

كادت مائي تسأله عما إذا كان يظنه شريراً كما سمعت، كما كادت تسأله عن عمره، فهي حتى هذه اللحظات لا تعرفه. لكنها شكرت المزارع والتقطت حقيبتها وبدأت تسير باتجاه الطريق الذي أشار إليه.

كان المساء في أوله الآن، لكنه مساء دافىء جميل. ولولا ثقل حقيبتها لتمتعت بالسير.. على الأقل كانت ستتمتع بمسيرتها لولا ما سمعته من الناس. ربما هناك من جاء لاستقبالها وأخطأ موعد القطار.

لكن أخطاء كهذه نادراً ما تحدث عندما يكون القادم شخصاً مرحباً به. مع ذلك لا داعي للمبالغة في الأمور الصغيرة.. على

الأقل غيّر وصيها الجديد تكتيكات العمة كارولين ودعاها إلى منزله لقضاء العطلة، حتى قبل أن يعرفها.

أمام مفترق الطرق، وضعت حقيبتها، وركزت ذراعيها ثم نظرت حولها... فإذا في كل اتجاه من المفترق تمتد تلال مليئة بالأشجار، مع أن المنطقة ليست وعرة ليقال إنها برية. لكن لا منزل على مرمى البصر، إلا منازل ريفية بعيدة.. تنزع عن المكان صفة الوحدة.

كانت الشمس غروباً ترسل أشعتها على السماء وكانت في كل الاتجاهات تمتد مراعٍ ثملة في شمس الصيف الغاربة.

بدا ما حولها ودوداً. ولاحظت أن الطريق الذي سلكته رغم تصاعده إلى الأعلى، غير متعب، يسهل عليه السير.

ما إن سارت مسافة قصيرة حتى سمعت عن بعد، في صمت الأمسية الصامتة الهادئة، صوت اقتراب سيارة. فتمنت أن يراها سائقها ويعرض عليها إيصالها، ولو إلى مسافة قريبة. فجأة ظهرت أمامها سيارة طويلة منخفضة، بنيت خصيصاً للسرعة، فيها راكب واحد، شاب مرح الأسارير، يجلس خلف مقودها، تقدم ببطء ووقف قربها:

- مرحباً.. أتريدين أن أوصلك؟
- أحب هذا.. إذا كنت ذاهباً في اتجاه الديان ستون.
- هذا هو المكان الوحيد الذي تفضي إليه هذه الطريق.

نزل ليتناول منها الحقيبة ثم فتح الباب لها بعد أن رمى الحقيبة على المقعد الخلفي. صعدت مائي بحذر إلى المقعد قربه، وانطلقت السيارة مجدداً.

- هل أنت مقيمة في الديان ستون؟

www.liilas.com

- أجل، عند السيد ستار، وصي.
- يا إلهي.. وكيف تتدبرين أمرك معه؟
- أنا لا أعرفه.. سألتقيه للمرة الأولى.
- اوه.. هكذا إذن.. أنا آسف. لا تدعي كلامي ينتزع منك شجاعتك، أستطيع القول إنني متسرع في أحكامي خاصة في أمر كهذا، فلم يسبق أن كان لي وصي يؤدبني أو أب يرعاني مثل ولادتي.. فأنا نتاج مجتمع عابث، الابن الوحيد لأرملة وأم متسامحة.. لكن هذا كله مكتوب على وجهي دون شك أو استنتجي ذلك بنفسك.

ضحكت مائي وأدارت وجهها تفحصه.

- لا أظنك نتاج مجتمع عابث.. بل ابناً عاقلاً لأم أرملة.
- اوه.. أنا ولينا متفقان.. أناديها لينا لأنها ترفض أن أقول لها «أمي» وهي على حق ذلك أنها أصغر من أن يكون لها ابن في مثل سني. لا أدعوها «أمي» إلا حين أود إزعاجها.. وإذا أردت إغضابها قلت لها «أمي العزيزة» بالمناسبة اسمي جيري مايسون.
- واسمي مائي بروكتر. ما اسم أمك؟
- لينا.. إنها روسية، أو نصف روسية. هي امرأة أنيقة على الطريقة الأرستقراطية الروسية القديمة. لكنها ليست من أتباع القيصرية ولا من مؤيدي البولشفية الحمراء. إنها حقاً طيبة وجميلة جداً.
- تبدو من هذا الوصف مرحة.
- سترينها بنفسك دون شك.

فابتسمت مائي ترقباً:

- سأفعل؟
- إن مكثت طويلاً ترينها بكل تأكيد. كم ستبقين مع عمك الجذاب؟

طرحت مائي بفضول إليه:

- أظن أن السيد ستار شرير وجذاب؟
- اوه.. لا.. ليس حقاً، فأنا كنت أمازحك.. كم من الوقت ستكثين؟
- الحفلة المدرسية.. أي حتى منتصف أيلول.
- إذن يجب أن تزورينا لتقابلي لينا.. سأطلب منها الاتصال بك حتى ترتب الزيارة، فلا أظن وصيك يحبني، ومع أنه لا يجب لينا كذلك إلا أنها شخصية يصعب قول «لا» لها..

هل تحبها أنت؟

- ولم لا يحبك؟
- لست أدري، مع أني لا أتصور أن هناك من لا يحبني، أنت لا يحب الناس عموماً، وعلى الأخص منهم الشبان المغرورين الذين لا يحبونه أيضاً.

تنهدت مائي:

- يا إلهي!
- لا تقلقي، ما دمت لن تتدخلي في خططه أو حياته. سيسمح لك بفعل ما شئت.
- وماذا تعني بخططه؟
- لست أدري بالضبط.. إذ يجب ألا أروي الشائعات الشائعة حوله، لكنه نوع من الرجال، لو كان في القرون الوسطى لحطم الصليبيين أو على الأقل لخلع أسرة أوروبيا عن

www.liilas.com

إماراتهم. . إنه مولود للتلاعب بالأحداث، لكن لا وجود لمثل هذا النشاط في أيامنا هذه. . ومع ذلك أظنه يطبق هذا التكتيك على كل ما يريد أن يحققه من شراء أراض يضيفها إلى أملاكه الكبيرة إلى هزيمة عضو في المجلس البلدي إذا لم يعجبه وجهه.

- ألهذا هو شهير في المنطقة؟

- وما الذي جعلك تظنينه شهيراً؟

- حسناً. . أليس شهيراً؟

- هذا تقريباً الوصف الملائم له.

- سمعت أشخاصاً في القطار يتحدثون عنه.

فضحك جيري مايسون متعاطفاً:

- أيتها الفتاة المسكينة! لا تتوتري أعصابك مسبقاً من أجله. . ستتدبرين أمرك معه. . هل قد وصلنا إلى بوابة الطريق الخاصة. . وأظن أن من الأفضل ألا أوصلك إلى المنزل. . سأتصل بك هذا المساء لأطمئن عليك.

- حقاً؟. هذا لطف منك.

راقبها حتى أخفته الحشائش في الطريق الداخلية عنها، فاستدارت تلوّح له، فرد عليها وانطلق. التوت الطريق الداخلية المؤدية إلى المنزل والمحاطة على الجانبين بأشجار الغار، مرتين قبل أن يطل عليها المنزل الذي توقفت عنده مذهولة. فأمامها يقع أجمل قصر قديم، يلمع قرميده الأحمر تحت أشعة شمس المساء، وتعكس نوافذه المرتفعة الطويلة ذات الزجاج البرّاق كالألماس لمعان المغيب، وتمتد مداخنه المرتفعة نحو السماء الزرقاء الصافية.

لا يبدو هذا المنزل أثرياً بكل ما للكلمة من معنى، فالتصميم الذي اتخذه في الوقت الحالي جعل من الصعب عليها معرفة الأصل منه.

هناك على جانبيه، مرجات ناعمة من العشب تحيط بحديقة غنية بالأزهار الملونة، ولا تدري لماذا شعرت مائي بأن في مؤخرة المنزل واحدة من تلك الشرفات المتدرجة المبنية خصيصاً لتستعرض السيدات فيها أجمل ما عندهم إلى جانب أسيادهم في سراويل ضيقة وصدار مزخرف.

أحست بأنها متطفلة من القرن العشرين دخلت إلى التاريخ، سارت تجتاز آخر امتداد أمامها من الطريق، وصولاً إلى درج حجري عريض يفضي إلى بوابة خشبية من السنديان السميك، يتدلى منها قبضة نحاسية لجرس يدوي.

وكأنها تتحدى، جذبت قبضة الجرس، فرن صوت رخيم في مكان قصي، وكأنه بعيد في زمن سحيق، وفضاء واسع.

كان من فتح لها الباب رجلاً عصرياً لا أثر فيه للصورة المزخرفة التي رسمتها في مخيلتها عن المكان.

- أنا مائي بروكتر، وأعتقد أنكم تتوقعون وصولي.

- تفضلي أرجوك سيدتي. . وسأستدعي السيدة هدسون مديرة المنزل.

يبدو أن على من يريد الوصول إلى الوصي أن يمر بسلسلة من الوسطاء، أم يكون السبب عدم استعداده لتحمل قبول قصتها على محمل الجد، ويفضل ترك الأمر للمديرة.

بعد لحظات، تقدمت سيدة عجوز ترتدي ثوباً أسود:

- آنسة بروكتر؟

www.liilas.com

ـ نعم.

شعرت بأنها وصلت إما مبكرة جداً أو متأخرة جداً، لكن بكل تأكيد ليس في الوقت المحدد.

ـ عرفت أنك نزلت في محطة غراي الخطأ.

ـ لم يكن خطأ، فالمحامي السيد بيتوسا طلب مني النزول في غراي.

ـ كان يجب أن يرشدك إلى فورت وابن، بيل أخذ السيارة وانتظرك هناك.

ـ أنا آسفة لهذا.

ـ لم تكن غلطتك. قالت الآنسة ستوكمان من القصر الأبيض للسائق إنك توجهت إلى غراي.. كان ذاهباً لتوه لكنه أوصل جرائد المساء أولاً للسيد ستار.

ـ اوه.. حسناً، في الواقع أوصلني أحدهم، ولا بأس مما حصل.

ـ حسناً.. سأريك غرفتك الآن، حين تغتسلين وتغيرين ملابسك سيراك السيد ستار.

جعلتها الطريقة التي قالت فيها هذه الجملة تشعر وكأنها قذرة، بحيث لا تليق بأن تلقى وصيها.. فلحقت بالسيدة هدسون إلى الطابق العلوي، متمنية من كل قلبها أن تتمكن من العيش في ظل طراز المدينة التي تطيق هنا.

استدارت المدبرة في أعلى الدرج إلى ممر خشبي الجدران مصقول لماع يفضي إلى باحة مربعة، في نهايته غرفة.

بدا أمام عيني مائي الحائرة والخذلى أنها خطت إلى الأمام في عقب الشمس، فالغرفة الجميلة المغطاة بجدران خشبية،

ذات ألوان زاهية، كانت مغمورة بشمس المساء. فصاحت:

ـ ما أجمل هذه الغرفة! أهي حقاً لي؟

ـ أجل آنسة مائي... وأنا سعيدة لأنها أعجبتك.

ـ ليس هناك من إنسان قد لا يحبها! ما سكنت قط في مكان جميل كهذا، هل اخترتها أنت لي سيدة هدسون؟

ـ اوه.. لا آنسة مائي؟ السيد ستار طلب منا أن نعدّها لك.. قال إن الصغار بحاجة للنور واللون.

ـ هو قال هذا؟.. ما ألطفه!

ـ اتركي حالما تجهزين تجديني في غرفتي الواقعة في نهاية الردهة.

وتركت مائي تتصرف كما تريد.

لم يكن أمامها وقت طويل لتتأمل مكان إقامتها الجديد. إلا أنها فهمت أن المنزل ورغم طرازه الأثري القديم يحمل بين جنبيه ما هو أبعد بكثير عن وسائل الراحة العصرية من الداخل. صحيح أن الخشب المحفور والستائر الزرقاء تحافظ بطرازها على صبغة تلك الفترة، إلا أن يداً بارعة أضافت لمسات القرن العشرين بكفاءة عالية، وما كان في الأزمنة الغابرة غرفة ملابس، أصبحت حماماً رائعاً عصرياً.

بعد أن اغتسلت راحت تسرّح شعرها الأسود ثم لم تلبث أن بدلت ملابسها فارتدت فستاناً أحمر أبرز جمالها الداكن، وقفت تتأمل ما حولها، تلاحظ كل تفصيل جديد بسعادة، وتفكر في قول وصيها «الصغار بحاجة إلى النور واللون» فهذا لا ينطبق على الوصف الذي تلقته من الناس خلال الساعات الأخيرة.. فهذه الملاحظة لطيفة متسامحة، إنها ملاحظة ما كانت لتتفوه بها

www.liilas.com

العمّة كارولين ولو بعد مئات السنين.

ثم نزلت بقلب خافق إلى الردهة الكبيرة التي كانت خالية. كان المنزل صامتاً، صمتاً دافئاً ودوداً. وتوقفت قليلاً في أسفل الدرج، ثم تذكرت الغرفة التي خرجت منها السيدة هدسون حين وصلت، فتقدمت منها ودفعت الباب بلطف، فوجدت الغرفة خالية كذلك.

تراجعت بصمت وهدوء، على أطراف أصابعها، إلى الوراء نحو مقدمة الردهة، فلاحظت أن كل الأبواب السنديانية الخشب المحفورة مقفلة، إلا واحداً مفتوحاً قليلاً، فتقدمت منه بالدفاع وترقب ودفعته بهدوء، ثم نظرت إلى الداخل.

كانت غرفة جميلة، أنيقة كغرفتها تماماً، غرفة ساحرة مبهجة، وقفت ببابها تنظر إلى من فيها، إلى من لم يحس بوجودها حتى تلك اللحظة. وبدا لها، كانطباع أولي، أنه أنقى الرجال.

كان يجلس قرب النافذة، لا تظهر منه سوى واجهة وجهه الجانبية، كانت شمس المغيب تضفي تأثيراً غريباً عليه وكان النور يلفه بدثار مضيء جعلها تتذكر تفسيرها لاسم إبليس «بالوضاء». لكن تلك الهالة لم تكن تشع منه، بل من داخله.

فيما بعد، عرفت ماثي أن هذه الشعلة ما هي إلا نور التوقد والذكاء اللامع، البعيد كل البعد عن التواضع، وقد وهبته في تلك اللحظة روعة فائقة.

بدا لها رغم جلوسه رجلاً طويلاً، نحيلاً تحيط به هالة من الكبرياء التي توحي بالسلطة، سلطة العقل أكثر منها سلطة العضلات.

كانت غارقة في تأمله فوقفت دون أن تدري طويلاً هناك، إلى، إما أنها أصدرت صوتاً خفيفاً وإما أن وجودها اتصل بوعيه بطريقة ما. ففي تلك اللحظة رفع رأسه.

لم تكن حركته تلك سريعة، لكن عندما نظر إليها، تلقت ماثي نظرة عينيه الزرقاوين الباردتين الراعشتين بصدمة. لم تكن قد فكرت حتى تلك اللحظة بلونهما. وعرفت أنها لن تستطيع استجماع صورته في مخيلتها دون أن تعدلها صورة عينيه الزرقاوين.

لم تظهر عليه الدهشة وهو يراها واقفة هناك، بل مد يده بكل بساطة نحوها قائلاً:

ـ ادخلي يا ابنتي... دعيني أمعن النظر فيك.

• • •

www.liilas.com

٢ ـ قلب دافىء

اقتربت مائي إلى الأمام، دافئة، نضرة، مفعمة حيوية، وكأنها لوحة زيتية رائعة اقتحمت الحياة فجأة لتبدو عرض ألوان رائع الجمال. أمسك الرجل الجالس على الكرسي يدها ليحدق فيها.

قالت مقطوعة الأنفاس:

ـ أنا مائي.

ـ أجل.. بالطبع.

كان صوته البارد يقول إنها لن تكون شخصاً آخر. لذلك فإن التعريف بنفسها خال من المعنى، وهي في آن. تضرّجت وجنتاها تحت نظرته المعتقدة.. ثم قال لها بهدوء:

ـ أنت طفلة حلوة. وأنا مسرور، لأنني أكره الأشياء القبيحة أو الأشخاص القبيحين حولي.

فتزايد تضرّج وجنتي مائي وقالت بخجل:

ـ أنا... أنا سعيدة لأنك تعتبرني جميلة.

ـ لست جميلة فقط، فليس للدفء والنضارة علاقة بالجمال.. أنت جميلة وسيكون شغلي الشاغل أن أرى هذا الجمال ينمو. لقد أحسنت كارولين صنعاً بوفاتها الآن، وإلا لخلقت منك فوضى كاملة وأنت في طور النضوج.

صدمت مائي من الطريقة التي أظهر بها اهتمامه بموت أو حياة العمة كارولين. نعم هي لم تشاهد العمة كثيراً ولا سبب يدعو إلى أن تذكرها بدفء، لكنها في مطلق الأحوال قريبة هذا الرجل. فكيف له أن ينظر إليها هكذا؟

ـ ألم تكن... تحب العمة كارولين؟

رد أخ العمة غير الشقيق دون حرارة:

ـ لا... فرأيي أنها بغيضة، شخص لا لزوم له في المجتمع.

صمتت مائي بإحباط، فاعتلت وجه الوصي السخرية:

ـ لماذا تسألين؟ أكنت تحبينها؟

ردت ببطء:

ـ لم أكن أعرفها جيداً.. ولا أظن أنها كانت تهتم بي، شخصياً، لكنها كانت تمثل... أعني، كنت أنتمي إليها، كما [illegible]

ـ لكنك لم تريها تقريباً؟

ـ أجل..

وقف، فأدركت أنه كما تكهّنت طويل، وسيم بشكل غريب بالنسبة لرجل. أمسك ذقنها المستدير، وأدار وجهها إلى النور، يتأملها ببرود، وكأنها بالفعل لوحة مرسومة. حاولت أن تتقي نظرته الباردة، لكنها أخفضت عينيها وعاد الاحمرار يصبغ وجنتيها، فقال وهو يترك ذقنها:

ـ أجل.. كانت كارولين امرأة غبية... لذا ليس غريباً أن تؤدي وصايتك نظرياً، متجاهلة أن تلك التي عُهدت إليها فتاة غير عادية المظهر.

www.liilas.com

- إنها.. لم تكن تريد تولي أمري.
- وتركتك تعرفين هذا؟
- اوه.. لم تقل لي هذا بالكلمات!
- بل جعلتك تحسين بأنك إنسانة غير مرغوب فيها.

أحست فجأة بالتأثر لإعجاب هذا الرجل السريع بوجه نادراً ما تفكر هي فيه، وجه سبب لها الألم في أوقات مختلفة.. وأجابت:

- حسناً.. أعتقد أن من الصعب أن يسعد المرء بالعناية بأولاد الآخرين.

راحت تتساءل ما إذا كان هذا شعوره أيضاً. فارتجف فمها قليلاً، وأخفضت عينيها، فهي لا تريد أن ترى على وجهه نظرة التردد والكره لأن العمة أوصته برعايتها.

ثم، دون أن تصدق، أحست يده على شعرها.. كانت لمسة واثقة، رشيقة.

- حسناً يا طفلتي.. أرجو ألا تشعري بعد اليوم بأنك إنسانة غير مرغوب فيها.

لم تكن تتوقع قوله هذا خاصة بعدما سمعته مؤخراً عنه من أقوال تصفه وتخبر أنه شخص غير إنساني لا رحمة فيه.

وها هو يحدثها، يلامسها، بحنان وعطف وتفهم لم تجدها عند أي إنسان آخر.

لم تكن مالي بطبعها فتاة كتوم فهي تعبر عن مشاعرها دون أن تكبحها لذا رمت ذراعيها حوله وخبأت وجهها في كتفه. فسمعته يضحك، ضحكة ناعمة باردة، غير خالية من الرضى، وعادت يده إلى شعرها، فشعرت به يملسه بنعومة.

- يا فتاتي العزيزة.. إنّ كارولين على ما أخشى أعطتك فكرة سيئة عن الأوصياء، حتى تظهري مثل هذه الراحة عند أدنى بادرة عطف من جهتي.

فرفعت رأسها إليه مبتسمة دهشة من ظهور الدموع في عينيها:

- اوه.. لا.. أبداً.. لقد أظهرت سخافتي فقط... لكنني أحس بالسعادة، ما توقعت هذا الترحيب.

- صحيح؟ اجلسي إذن وحدّثيني عن نفسك. هل كانت رحلتك موفقة؟

- اوه.. أجل شكراً لك.. إلا أنني أكملت رحلتي حتى محطة فوري بدل النزول في محطة فورت واين، حيث كانت السيدة ستوكمان.

- حقاً؟ كيف وصلت إذن من هناك إلى هنا؟

- وصفني سيد اسمه مايسون، كان قادماً بسيارته..

لم يعلق بشيء على جيري مايسون فدهشت، لكن فمه انحنى بسخرية:

- هكذا إذن.. أما يزال بيل ينتظرك في المحطة؟

- اوه.. لا، أتدري.. كان هناك أشخاص في المقصورة حيث يجلسون في فورت واين.. وهما السيد ستوكمان وأخته وصديقة لهما.. عندما تحدثت معهما عرفوا أنني قادمة [illegible] إلى الديان ستون. ويبدو أنهما أخبرا بيل عن [illegible] آخر، لذا كان سيذهب إلى هناك بعد إحضار [illegible] لكنني وصلت قبل أن يذهب.

- [illegible] تعرفت إلى عدة أشخاص في المنطقة: جيري

www.liilas.com

مايسون، سيلي ستوكمان، وجيس الرائع. وماذا أخبروك عني؟

ظل حتى تلك اللحظة يتأمل سكينا تقطع الورق التقطها عن المنضدة. لكنه حين أطلق سؤاله رفع بصره إليها فجأة يرمقها بنظرة حادة بارقة مخيفة. فأجابت بارتباك:

- لماذا.. لماذا.. لماذا تحسبهم ذكروا شيئاً عنك؟

ضحك:

- إنهم جيراني وأنا أعرفهم. ولا أحسبك تركت الأمر دون أن تسألهم بعض الأشياء عني.

- لم أسأل الكثير.

وتذكرت أن المعلومات وصلت إلى مسمعها دون أن تسأل.

- لا؟.. لكن ماذا استطعت أن تنتزعي منهم؟

ترددت قليلاً.. ثم ظهرت ابتسامة عابثة على وجهها:

- أتريد حقاً أن تعرف؟

- أرجوك.

- حسناً.. أحدهم، ولن أقول من هو، قال إنك مثل إبليس.

- حقاً؟ إبليس قبل أم بعد أن هبط من الجنة؟

- أيه.. قبل أن يهبط.

- لكنهم سمحوا لأنفسهم بتوقع الهبوط بسرور؟ أهذا كل ما قاله سيلي ستوكمان؟

- أنا.. لم أقل.. إنها الآنسة ستوكمان.

- يا عزيزتي ماثي.. كل من ذكرتهم من النوع البسيط غير المعقد. ما إن أسمع الملاحظة حتى أحدد لك هوية قائلها دون جهد.

وصمتت ماثي بانزعاج. فتابع يقول بازدراء:

- سيكون أي تشبيه من مايسون الشاب أقرب إلى التشبيهات الرياضية... فالتعليقات الكلاسيكية ليست من طرازه.. أما جيس ستوكمان، فأشك في قدرته على التشبيه خارج دائرة معرفته الخاصة.

- في الواقع.. كان هو من استخدم التعبير أول مرة، قال.. إنك متكبر كإبليس، لكن الآنسة شرحت له من هو إبليس.

ضحك عندما سمع منها هذا وقال:

- أرى أنك دقيقة جداً ماثي، ولديك روح عادلة طيبة، ألن تقولي لي ما كان تعليقك على نقاش موضوع إبليس؟

- حسناً.. أخشى أنني أبديت التزمت قائلة إن إبليس ليس بالضرورة ملكاً للشياطين. فهو قد يعني كذلك «الوضاء».

- ولماذا قلت هذا؟

- لم يعجبني تشبيههم لك بالشيطان.

- لكنك ما كنت تعرفين شيئاً عني.

- لا.. لكنك وصيي، لذا لا أسمح بأن يشبهوك بإبليس.

نظر تريفور ستار إلى من عُهدت إليه بفضول واهتمام:

- أنت فتاة غريبة!

ووقف:

- تعالي.. يجب أن تستعدي للعشاء.

كانت ماثي بشكل عام سعيدة لانتهاء ذلك الحديث دون الإشارة إلى جيري مايسون.

جلست ماثي في غرفة كبيرة رائعة مؤثرة تواجه وصيها على

www.liilas.com

[illegible] تفكر في أن هذه هي الغرفة الأولى التي تبدو لها كئيبة بعض الشيء. كان خشب الجدران أكثر اسوداداً، وستائر النوافذ أكثر رثاثة. ربما أنها تواجه الشرق، فإذا نور المساء قد رحل عنها منذ وقت لا بأس به.

أضاءت الشموع المعلقة فوق الطاولة العتمة، لكن رؤية وصيها على ضوء الشموع الخافت، بدا لها وما يحيط به أكثر تجهماً وبرودة من غرفة الاستقبال الغربية المنارة. فسألته مترددة قليلاً لأنها لا تدري ما هي الطريقة الفضلى لمخاطبته:

ـ أهذه الغرفة أقدم جزء في المنزل... سيد ستار؟

قبل طريقتها في القول دون اعتراض وأجابها:

ـ أجل... الجناح الشرقي هو كل ما تبقى من المبنى الأصلي، أما سائر أرجاء المنزل فحديث إذ تمّ إنجازه في أوائل القرن. أما الحمامات والمطابخ فهي حديثة تماماً.

أحست صائبي له، ولمعت عيناها السوداوان في ضوء الشموع:

ـ إنه منزل بهيج..

بدا متفاجئاً خفيفة وكأنها رغم إرادته:

ـ أتعتقدين هذا؟.. أجل.. إنه مكان جذاب.. لكنه ليس أجمل منزل في المقاطعة كلها.

ـ أليس كذلك؟ أيها الأفضل إذن؟

ـ إنه قصر غراي، منزل السيد جيروم فالكون.. ألم تريه أثناء قدومك؟

كانت منشغلة بالحديث مع جيري مايسون، لذا لم تلاحظ أي منزل كبيرة وهما قادمان من المحطة. أحست بأن وصيها

عرف هذا، لأنه ابتسم هازئاً لكنه تابع حديثه بهدوء بارد:

ـ إنه قصر قديم، انكليزي الطراز، مبني على مساحة واسعة. لقد هجر الديان ستون إبان الحرب الأهلية، لكن كان لقصر غراي العناية الكافية فحافظ على كماله... كانت تملكه عائلتي منذ مئات السنين.

ـ ألا تملكه الآن؟

ـ لا.

وأكمل يسألها عن مدرستها فشرحت له أنها في سنتها الدراسية الأخيرة. فنظر إليها مفكراً:

ـ فلأر الوضع.. ستبلغين السابعة عشرة في أيلول، أليس كذلك؟

ـ أجل... لماذا؟

أحست بالإطراء والتأثر قليلاً لأنه يعرف، ليس عمرها فقط بل موعد عيد ميلادها. ما كانت العمة كارولين لتهتم أبداً بمثل هذه التفاصيل:

ـ أترغبين في ترك المدرسة في عيد الميلاد؟

أدهشها ثانية بتفكيره لكن من حقها أن تُستشار بشأن مستقبلها. فأجابت:

ـ لم أفكر في ترك المدرسة قبل الصيف القادم. مع ذلك فلو نلت علامات جيدة في الفصلين الأخيرين فلن يكون هناك حاجة للبقاء حتى الفصل التالي.

ـ وستعرفين النتيجة بعد أسابيع؟

ـ أجل.

ـ وهل ستنجحين؟

www.liilas.com

ـ أجل.. هذا إذا لم أنل علامة سيئة في اللغات. أظنك تعرف اللاتينية واليونانية جيداً؟

فضحك:

ـ وما الذي يجعلك تعتقدين هذا؟ نعم أعرف لغات عدة لكنني ما اعتقدت الأمر مكتوباً على وجهي.

ـ لا أستطيع أن أفسّر كيف عرفت بالضبط.. لكنك تعطي انطباعاً يوحي للمرء بأنك مثقف تعرف معظم الأشياء.

ـ في الواقع، أنا مضطر للتخفيف من هالة الثقافة هذه.

لكن مائي كانت مؤمنة بأن وصفها له لم يكن مخطئاً. بعد لحظات من التفكير قالت:

ـ أتعني أنه يمكنني ترك المدرسة في الميلاد إذا شئت؟

ـ لا أرى ما يحول دون ذلك، سأكون هنا في الشتاء. وستكون هذه فرصة ملائمة لأصلحك ولأصلك اجتماعياً.

ردت بخجل:

ـ أظنني سأحب هذا.

بينما كانا يتركان المائدة، دخلت خادمة لتقول:

ـ أنت مطلوبة على الهاتف آنسة.

ـ أنا؟.. اوه طبعاً.. أتعذرني أرجوك؟

هز رأسه، مع أن عينيه الزرقاوين حدقتا فيها بطريقة مستنكرة.

أرشدتها الفتاة إلى غرفة هاتف صغيرة وتركتها، فالتقطت الهاتف وقالت منشوقة:

ـ آلو.. أنا مائي بروكتر.

ـ مرحباً.. تأخرت كثيراً في الرد، حتى بدأت أتساءل ما إذا

كان الغول التهمك، وادّعى عدم وصولك إلى البيت.

ـ لا لكن سخيفاً.. كنت أتمشى معه حين استدعيتني... ثم ليس هناك غول.. بل الوصي الذي عهدت إليه رجل رائع.

ـ مستحيل، لا بد أنك وصلت إلى منزل آخر.

ـ هراء! أنت لا تعرف عنه إلا ما يشيعه الناس محلياً. إنه شخص لطيف جداً، رقيق ومتفهم. أتعرف أنه أزعج نفسه في تحديد أجمل غرفة في القصر لي، فهو يعتقد أن على الصغار أن يتلقوا الدلال قليلاً.. لا أنكر أنه جدي وساحر، لكن بطريقة ساحرة و... أما زلت تسمعني؟

ـ اوه.. أجل ما زلت معك.

ـ لكنك لا تقول شيئاً.

ـ طبعاً لأنني أفكر في ما تقولين.

ـ تفكر؟

ـ اوه.. أفكر في ما تخبرينني عنه من أوصاف جميلة. كنت أفكر كيف استطاع أن يكتسب هذه الفضائل كلها في ساعتين أو ثلاثة... أو بكلام آخر، ما هي لعبته.

ـ لا تسيء إليه بالقول سيد مايسون!

ـ اسم جيري لطيف!

ـ جيري إذن. لكنني لن أسمح لك بأن تصف وصيي بالشرير. فلا بد أن هناك الكثير من الأقاويل المتداولة والمعلومات المغرضة عنه. أعتقد أنهم أساؤوا فهمه.. لأنه...

ـ سامحيني على ضحكي.. لكن التفكير في أن يرتدي ستار قديس أسيء فهمه أمر يغمرني مرحاً ورعباً في آن.

ـ إذا استمريت في المزاح المزعج هذا فسأقفل السماعة.

www.liilas.com

فعاود الضحك بقوة وقال:

ـ لا.. لا تفعلي هذا. فلن أمازحك بعد. وأنا سعيد لأنك وجدته لطيفاً، وأتمنى أن يبقى هكذا طويلاً. لكن يا مائي.. لا تقبلي كل ما يقوله ويفعله بمعناه الظاهري. لا أريد أن أفتعل المشاكل في بيتك السعيد.. لكن.. تذكري ما قلته.. هل تفعلين؟

ـ حسناً.. طبعاً سأتذكر. على كل.. لقد سرّني اتصالك.

ـ لا بأس في هذا.. كنت حقاً قلقاً عليك. اوه، على فكرة، وعدتني لينا بالاتصال بكم خلال اليومين القادمين لتطلب منه الموافقة على أن تزورينا بعد ظهر أحد الأيام. وأتمنى أن يسمح لك بزيارتنا.

ردت مائي بمرح:

ـ طبعاً سيوافق. وسيكون هذا رائعاً. وشكراً لك.

ودعته، ثم أقفلت مائي السماعة. وعندها فقط تذكرت نظرة وصبها التي ألقاها عليها حين خرجت من غرفة الطعام لترد على المكالمة. وأحست بحاجة لتهيئة نفسها قبل أن تعود إلى لقائه مجدداً في غرفة الجلوس.

كانت الأنوار قد أضيئت، والستائر الحريرية قد أسدلت.. وكان يسند ظهره إلى كرسيه يقرأ، والقهوة على طاولة منخفضة أمامه، لم تصب بعد. ما إن دنت منه حتى رفع رأسه قائلاً بلطف:

ـ هلاّ صببت القهوة مائي؟.. من كان المتكلم؟

ـ جيري مايسون.

ـ وماذا يريد؟

ـ اوه.. يسأل ما إذا كنت على ما يرام.. و...

ـ لكنك قلت إنه أوصلك إلى هنا شخصياً.

ـ أجل.. أوصلني إلى البوابة الخارجية.

ـ هكذا إذن.. وهل ظن أن شيئاً ما قد يصيبك في الطريق الداخلية؟

ـ اوه.. لا... إنه.. أنا.

ـ لا تضعي الحليب في قهوتي أرجوك.. نعم.. تابعي..

ـ حسناً.. إنه يعرف أنني قادمة إلى قصرك للمرة الأولى، وأنني.. كنت، متوترة قليلاً و.. و.. وعدني بأن يتصل للاطمئنان.

ـ كان عليه أن يطمئن عليك.

تناول منها فنجان القهوة بيد ثابتة. أحست للحظات بأنها بسذاجة.. ثم تذكرت أن دوافعها ودوافع جيري طبيعية. فرفعت بصرها إليه:

ـ أتمانع في أن يتصل بي؟

ارتشف قليلاً من قهوته مفكراً:

ـ حسناً يا عزيزتي. لن ألعب دور الوصي الصارم.. لكنني أفضل ألا تعقدي صداقات عابرة عادية على أساس غير رسمي هكذا. فجيري مايسون شاب مخادع مستهتر.. ولا أريده أن يعترض أن له مدخلاً إلى الديان ستون، لأنه منّ عليك فنقلك بسيارة الممثل الصغير السخيف الذي يدعوه سيارة، على كل لا أود التصميم على هذه النقطة، لكن اعلمي أن ما يسهل التقاطه يسهل تركه!

ـ لكنني لا أود تركه.. لقد أعجبني.

www.liilas.com

ابتسم بيرود:

- حقاً؟

وتخلى بكل بساطة عن الموضوع. أما هي فتوقعت أن يعيد فتح الموضوع بعد قليل لكنه حين تكلم وجدته يتحدث بيرود عن المنطقة، ذكر لها أماكن محددة قد ترغب في رؤيتها أثناء الإجازة، فما كان منها إلا أن أنصتت متجاهلة موضوع جيري مايسون لأنها إن عادت إلى فتح هذا الموضوع ظنها مهتمة بالشاب كثيراً.

عندما كانت تنظر إليه وهو يتابع محادثتها بصوته الهادئ، الجميل النبرات، فهمت لماذا يخشاه جيرانه ويمتعضون منه.

بعد إشارة منه إلى تعبها، أرسلها إلى النوم باكراً، دون أن يقبلها قبلة المساء ودون أن يقول شيئاً يدل على الترحيب بها. ومع ذلك أحست بأنه مهتم بها حقاً.

وصلت إلى انديان ستون مع كثير من المخاوف والهواجس... لكن، في ليلتها الأولى تحت سقف وصيها الجديد نامت نوماً هنيئاً لا إزعاج فيه.

حين نزلت في الصباح التالي لتناول طعام الفطور، أصيبت بخيبة الأمل لأنها وجدته قد بكر في تناول فطوره وخرج. فسألت الخادمة التي أحضرت لها القهوة:

- وهل تأخرت أنا؟

- اوه.. لا يا آنسة.. إن الساعة التاسعة هو أوان الفطور.. لكن السيد ستار خرج على جواده متفقداً بعض الأعمال في مزرعته باكراً.

- هل سيعود لتناول الغداء؟

نظرت الخادمة إليها باستغراب ثم قالت:

- أتوقع ذلك يا آنسة.

تركت الخادمة ماثي تتمتع بطعامها وتفكر في السعادة التي ستشعر بها وهي في هذا المكان.

بعد الفطور سألتها السيدة هدسون عما إذا كانت تريد رؤية المنزل.. لكن الطريقة التي اعتمدتها جعلت الاقتراح يبدو واجباً مزعجاً. ومع ذلك صاحت ماثي بإثارة:

- أوه.. سيدة هدسون، ما أروع هذا!

عند الضحة الجذلى جعلت السيدة تنظر إليها بروح المسامحة. سألتها ماثي باهتمام لم تحاول إخفاءه:

- أمضى عليك زمن طويل في العمل هنا سيدة هدسون؟

- أجل آنسة بروكتر.. جئت للعمل هنا، قبل أن تأتي والدة السيد ستار إلى القصر، وذلك في عهد والدة الآنسة كارولين، عندما...

- يا إلهي سيدة هدسون! إن هذا لمثير للاهتمام!

بدت الدهشة على السيدة وهي ترى نظرة الفتاة المستهجنة بشأن واجباتها وقالت:

- من المثير للاهتمام دائماً أن تعيشي حياتك في منزل واسع، بين أناس مثقفين.

- صحيح.. ما عنيته إن من المهم التعرف إلى مختلف جوانب عائلة. أكنت تعرفين العمة كارولين معرفة جيدة؟

- أجل آنسة ماثي.. أعرفها كما لم يعرفها أحد قط.

- ألم تكن صعبة المراس؟

- لا.

www.liilas.com

ـ أظنها كانت أكبر من السيد ستار بكثير؟

ـ طبعاً.. كانت شابة حين ماتت والدتها.. وكانت كاملة النضوج حين تزوج والدها ثانية.. وهنا كمنت المشكلة.

ـ أتعني.. أنها لم تتفق مع الزوجة الجديدة؟

ـ لم تكن في الواقع تتفق مع أمها التي كانت فائقة الجمال. وحين تزوج والدها من جديد امرأة جميلة كأمها.. كان هذا ضربة قاسية لها، والآن هيا لأريك المنزل، آنسة مائي.

ـ اوه.. لكن سيدة هدسون، هذا مثير! أرجوك حدثيني بعد عن تاريخ الأسرة... إذ أشعر كأنني أقرأ كتاباً.

ما جذب اهتمام مائي أن العمة كارولين، قدمت لها ككائن بشري وكفتاة عادية. ابتسمت السيدة، فقد رضي على ما يبدو غرورها لأنها وجدت من يصغي إلى كل كلمة تقولها.

ـ تعالي معي إلى غرفة الجلوس الشرقية، لأريك بعض الصور. وعندها ستفهمين الوضع أكثر.

رافقتها مائي باندفاع إلى غرفة جلوس طويلة الشكل أنيقة تقع في مؤخرة المنزل. وقد بدت، من منظرها الأبيض المغطى بشراشف، مهجورة لا تستخدم.

ـ كانت هذه الغرفة تستخدم كثيراً في عهد والد السيد ستار حين كان يقيم العديد من الاستقبالات.. لكنها بالطبع كبيرة جداً على الاستخدام اليومي... وهذه والدة الآنسة كارولين.

أشارت إلى لوحة معلقة فوق المدفأة. فحدقت مائي غير مصدقة إلى المخلوقة الجميلة المفعمة بالحيوية التي أنجبت العمة كارولين، وقالت:

ـ لكن لا تشابه بينهما!

ـ كان هناك تشابه حين كانت كارولين أصغر سناً. لكنها في الواقع تشبه أباها أكثر. وها هو في اللوحة المقابلة.. إنه والد السيد ستار كذلك.

نقلت مائي اهتمامها إلى لوحة رجل وسيم رمادي الشعر، مظهره يدل على التسلط لكنه لا يملك جمال وصيها.. قالت بالاندفاع:

ـ يبدو أنه تمتع بالزواج مرتين من امرأتين جميلتين.

ـ لن أقول هذا آنسة مائي، إن كلامك يشير إلى أنه تزوجهما في وقت واحد.

فضحكت مائي:

ـ لم أقصد هذا.. بل قصدت أن العمة كارولين لم تكن تتوقع منه أن يتزوج امرأة تختلف عن زوجته الأولى، فلا بد أنه كان يحب النساء المثيرات المرحات.. وأعتقد أنه كان يملك مالاً

ـ وهذه السيدة ستار الثانية قرب النافذة، إنها صورة رسمت بالحجم لرأسها، لكنها تشبهها كثيراً.

ـ لها قسمات السيد ستار.. السيد ستار الحالي أعني.

ـ لكنها لم تكن تشبهه في الطباع. كانت طائشة لعوب وفاتنة جذابة، وحقوداً قليلاً، كقطة مدللة.. لم يكن بها شيء من...

صمتت السيدة قليلاً تبحث عن الكلمات المناسبة.. ثم بدا وكأنها أحست بأنها كشفت الكثير عن مخدومها، إضافة إلى أسراره.. فقالت متجهمة:

ـ لم يكن لها تصميم السيد ستار.

www.liilas.com

- ألم تلتق السيدة ستار الثانية والعمة كارولين؟

- لا... أترين، كارولين لم تكن شخصاً متهوراً... وقد شهدت الكثير من تهور أمها الخطير. ولم يكن السيد ستار يرفض شيئاً لزوجته الأولى أو الثانية. ثارت مشاكل كبيرة فترة، ثم يبدو أن الآنسة كارولين ملّت منها، فتزوجت فجأة ورحلت... كان رجلاً لطيفاً، لكنه ليس غنياً.

- أعرف هذا فقد كان شقيق أبي الأكبر، وهو ما كان يملك المال ولم يحدث أن ملكه أحد في عائلتي.

وضحكت. فنظرت إليها السيدة هدسون باستغراب. لكن وجهها المتجهم استرخى قليلاً أمام ضحكها. وقالت ببطء:

- أفكر أحياناً في أن الناس سيكونون أسعد إذا كانوا غير أغنياء، شرط أن يملكوا منه القليل. كان لهذه العائلة في ما مضى مالاً وفيراً.

- أجل.. كانوا يملكون قصر غراي.

- من أخبرك؟

- السيد ستار.. ليلة أمس.

- صحيح؟ إنه لا يتكلم عن هذا عادة.

- أيشعر بالأسى لأنه لا يملكه الآن؟

- ليس لدي فكرة آنسة مالي.

- متى خرج من يد العائلة؟ في عهد السيد ستار الأب؟

- أوه يا عزيزتي لا.. حدث ذلك منذ زمن بعيد في بدايات القرن الماضي، أيام الثورة الصناعية، حين كانت عائلة فالكون حديثة العهد والثراء.. وكانت عائلة ستار تتلاشى يومها، فاشترت عائلة فالكون كل شيء في الجوار تقريباً. واضطرت

عائلة ستار للانتقال إلى هنا.

- وهم هناك منذ ذلك الحين؟

- أجل.. خلال فترة زمنية معينة كان من دواعي الاهتمام بشرف العائلة أن يحاول كل جيل استعادة قصر غراي. لكن رغم استعادة العائلة الثروة والعافية من جديد، إلا أنها لم تبلغ القدرة على استعادته... وكان الجد قد أوشك على تحقيق الحلم العائلي. واستطيع القول إنه لولا زواج ابنه من امرأتين طائشتين لاستطاع الجيل التالي فعل شيء.. لكن لم يعد هناك أمل الآن. من الأفضل الآن أن نكمل دورتنا على سائر أرجاء البيت.

وكان أن لحقت مالي بالسيدة من غرفة إلى غرفة، تشرح لها تاريخ الديان ستون الساحر. لكن ما من شيء قصته عليها مديرة المنزل كان مثيراً كتاريخ اللوحات الثلاث وأصحابها.

فيما بعد تركت مالي حرة لاستكشاف الأراضي حول المنزل بنفسها، وفي هذه الأثناء ذهبت السيدة هدسون لإكمال واجباتها. وبينما هي في تجوالها اكتشفت، كما أملت سابقاً، شرفة ساحرة خلف المنزل تمتد أمامها مناظر ساحرة من المروج والحدائق.

قد يكون أي إنسان راضياً بالديان ستون منزلاً حتى وإن كان يرغب في استعادة أمجاد قصر غراي، وما خصوم العائلة، ومنافسوها إلا منافسون نظريون.

غرقت في الاستكشاف حتى نسيت الوقت ولمّا حدث أن نظرت إلى ساعتها وجدت أن وقت الغداء قد حلّ تقريباً، وأنها إذا لم تسرع في العودة ستتأخر.. فسارعت عبر حديقة الزهور،

www.liilas.com

ثم مشت على المرجة، آملة ألا يكون من الخطأ السير على العشب الطري. وعندما دخلت المنزل من باب الردهة الجانبي كالعاصفة كانت أنفاسها مقطوعة، في هذه اللحظة بالذات خرج وصيها إلى باب غرفة الجلوس مبتسماً رافعاً حاجبيه. فسألته مالي:

- اوه.. مرحباً.. هل تأخرت؟ هل أبقيتك منتظراً؟

رد بيرود مادّاً يده إليها:

- لا.. أبداً.

كان استدعاؤه الودي لها واضحاً فسارعت إلى جانبه بتشوق. وقالت:

- افتقدتك وقت الفطور.

ولأنه بدا لها كما يجب أن يكون الوصي، لا كما كانت العمة، رفعت له وجنتها ليقبلها. مرّ في عينيه تعبير مذهول، ثم عاد إليه جو المرح الساخر، فأحنى رأسه وقبلها بيرود قائلاً:

- هل افتقدتني حقاً؟ هذا رائع منك. تعالي قابلي أحد جيراني.

جذبها إلى غرفة الجلوس واضعاً ذراعه حولها وهناك وجدت رجلاً طويلاً، أسمر، ضخم الجثة، يقف حاملاً كوباً في يده، ويبدو عليه الاهتمام بما سمعه من حديثهما.

وكان مثل مضيفه يرتدي ملابس ركوب الخيل.. وكان وسيم الطلعة، بشكل رزين.

قال تريفور ستار بابتهاج:

- هذا هو السيد جيروم فالكون.. جيروم هذه الشابة الفاتنة بالحيوية هي من عُهد إلي برعايتها.

* * *

www.liilas.com

٣ ـ رجل خطير

كانت مقتنعة بأن ليس هناك من ضغينة بين ممثلي العائلتين الحاليتين، لكنها دهشت قليلاً عندما رأت أن أول من قدمه إليها وصيها هو مالك قصر غراي.

ربما بعد أن التقيا في النزهة على ظهر الجياد، فكر تريفور في أن يدعو جاره لتناول الغداء.. وها هو الجار الآن، يمسك بيدها وينظر إليها بإعجاب صريح أربكها قليلاً. وقال معلقاً:

ـ أنت لن تُبعد هذه الفتاة ثانية إلى المدرسة تريفور؟

ـ لا.. لها أن تلعب إذا شاءت أو أن تترك عند حلول الميلاد.

ـ فلتختر ما تريد هه؟ يبدو أنها تعرف ما تريد.

فابتسمت بخجل وقالت:

ـ يعتمد كل شيء على نتيجة الامتحانات.

فقال وصيها مبتسماً:

ـ مالي تعني تماماً ما تريد من التعليم في هذا الوقت.

ـ اوه. إصحبيها إلى المدينة، ولتمرح قليلاً وعندها لن تفكر ثانية في العلم.

ـ حسناً.. سنرى.

وتقدموا إلى غرفة الطعام... كان الاحتفال غير الرسمي

بالنسبة لمالي تجربة اجتماعية، لذا شعرت بالخجل، وتمنعت عن المشاركة في الحديث.. لكن السيد فالكون، ووصيها، كانا مصممين على جذبها إلى مواضيع تهمها.. ووجد الضيف نوعاً من السذاجة الساحرة في كل ما كانت تقوله.. ولمّح مرتين إلى أنها فتاة ذكية، وأراد الاستفهام:

ـ أتركبين الخيل؟

ـ لا.. لم أتعلم قط ركوب الخيل.

ـ اوه.. يجب أن نغير هذا الواقع. يجب أن تسمح لي بتعليمها تريفور..

رد وصيّها دون جهد يذكر:

ـ لا.

فنظرت إليه مالي بسرعة وتساؤل، فأردف وكأنها غير موجودة:

ـ إن رغبت في تعلم الفروسية أعلمها أنا.

اعتلى العبوس وجه جيروم فالكون وكأنه ولد صغير، وقال:

ـ عمك تريفور يريد احتكار المرح لنفسه.

سارع الوصيّ يقول:

ـ أنا لست عمها تريفور.. فما نحن بقريبين، كان خال مالي في غاية الغباء فتزوج كارولين، إن هذه هي الصلة الوحيدة بيننا.

ـ حسناً هذا يجعلك عمها بطريقة غير مباشرة.

سارعت مالي ترد مسالمة:

ـ إنه لطف منكما معاً أن ترغبا في تعليمي الفروسية.. وأنا

www.liilas.com

أجد صعوبة في تقبل ملذات هذه العطلة دفعة واحدة.

فقال الوصيّ:

ـ إن هذا لغصن زيتون رائع مائي... ولعل عطلتك تكون كما توقعت.

ردت مائي بلهفة:

ـ لي كل الثقة أنها ستكون كما أريد. للمرة الأولى لا أحب العودة إلى المدرسة.

فقال السيد فالكون:

ـ لا تعودي إذن.. وصيك يقول إنك لست بحاجة للعودة إلا إذا رغبت.

ـ اوه.. بل يجب أن أعود ولو لفصل واحد، حتى وإن قررت تركها في الميلاد.

ـ لماذا؟

ـ يجب أن أكسب بعض العلم.. ثم...

وجدت صعوبة في شرح ما تريد، فتبدل وضع الإنسان من حالة إلى أخرى لأمر صعب مرعب.

سألها وصيها بهدوء:

ـ ثم ماذا مائي؟

ـ حسناً.. كانت المدرسة دوماً بمثابة حياتي كلها.

قاطعها السيد فالكون:

ـ وماذا عن العطلات؟

فقاطعه تريفور شارحاً:

ـ ما كانت عطلاتها مميزة.. هيا تابعي مائي.

فابتسمت متوترة قليلاً:

ـ إن ترك المدرسة، دون سابق إنذار، و... بدء نوع جديد مختلف من الحياة.. سيكون...

قاطعها وصيها ثم أردف ما تفكر فيه:

ـ مزعجاً؟

فقال السيد فالكون بدهشة حقيقية:

ـ يا إلهي! ظننت أن الناس جميعهم يشوقون إلى ترك المدرسة حالما تسنح لهم الفرصة بذلك.

فابتسمت مائي:

ـ اوه لا! خاصة حين تمثل المدرسة كل شيء مألوف لديك...

فقال وصيها:

ـ لا داعي إلى القلق عزيزتي.. فستتخذين قرارك بنفسك.

ـ شكراً لك.

وبدا التأثر على وجهها حتى أظهر السيد فالكون الاستخفاف وكأن هناك شيئاً لا يوافق عليه، لكنه قال:

ـ لقد أدليت منذ برهة بصوتك بشأن ترك المدرسة آنسة مائي. سأكون في الخريف هنا لأوفر لك وقتاً طيباً.

شكرته مائي مبتسمة، لكن إشراقها لم يكن كما ظهر أمام وصيها. وبعد أن انتهى الغداء ودعهما السيد فالكون وغادر لشأنه. فسألها تريفور ستار وهو يقف أمام طاولة مكتبه:

ـ حسناً.. ماذا فعلت في الصباح؟

جلست مائي قرب النافذة وراح هو يتفحص رسالتين وصلتا منذ هنيهة.. أدارت رأسها مبتسمة وقالت إن السيدة هدسون جالت بها في أرجاء المنزل ثم خرجت بعد ذهاب السيدة

www.liilas.com

لتستكشف الأراضي المحيطة... فعلق قائلاً:

- اوه... صحيح... فالسيدة هدسون تحب التحدث عن المنزل والعائلة إلى كل من يصغي... فقد أمضت معظم حياتها هنا. أتعلمين هذا؟

- أجل، أخبرتني... وبدا لي الأمر مثيراً للاهتمام.

- وهل فعلت؟

- إنها حقاً لطيفة... أليست كذلك؟

- اوه... بلى.

وتابع قراءة الرسالة، وراحت ماثي تتأمل الحديقة. ثم قالت بعد صمت سائغ:

- أعنيت حقاً قولك بشأن تعليمي الفروسية؟

- طبعاً... أتريدين أن تتعلمي؟

- أجل أرجوك، أظنني سأحب ممارستها.

- حسناً... سيكون لك جواد.

- اوه... لكن...

- ماذا؟

- هل ستشتري لي واحداً؟

- أجل... فليس هنا ما يناسبك... إذ ليس لدي في المزرعة إلا جوادان ومهرة.

- لكن أما يقتضي شراء جواد مالاً كثيراً؟

- سعر الحصان الجيد مرتفع... ما بالك؟

- حسناً... لا أريد أن تصرف مبلغاً كبيراً لتسليتي فحسب. فثمة ما يسعدني دون جواد.

وضع الرسالتين من يده، ودنا منها إلى حيث تجلس:

- عزيزتي ماثي... كان لكارولين بكل تأكيد تأثير كبير عليك. يا طفلتي سيكون لك مطيتك إذا شئت، فأنا قادر على دفع ثمنها.

سألت بريبة:

- صحيح؟

- بكل تأكيد... فأنا رجل ثري.

- ثري؟... لكنني ظننت؟...

- ماذا ظننت؟

- تصورتك عجزت عن شراء قصر غراي بسبب المال.

- ليس للمسألة علاقة بالمال لسوء الحظ بل بجيروم فالكون الذي لا يريد البيع.

- اوه... هكذا إذن... إن الأمر أكثر تعقيداً.

- أكثر تعقيداً؟ وكيف؟

- أعني، إن لم يكن المال هو السبب، فمن غير المجدي التفكير في استعادة القصر.

- ليس بالضرورة... يوماً ما سأجد شيئاً يحتاجه فالكون كثيراً عندها ستتكلم عملياً.

ظنته يمزح... لكنها عادت فعلمت أنه لم يمزح بل في قوله أهمية بالغة، حتى عجزت عن الرد، لكن وصيها على ما يبدو لم يكن ينتظر منها قول شيء. وسرعان ما استرعى اهتمامها دخول خادمة تقول إن السيدة مايسون موجودة هنا للزيارة... فسارع يقول بعد صمت لحظة:

- اوه... فلتدخل فوراً... أرجوك.

حين خرجت الخادمة نظر إلى ماثي بريبة جعلها تحمرّ

www.liilas.com

خجلاً. لكنه لم يعلق، وما هي إلا لحظة حتى دخلت السيدة مايسون.

لينا مايسون كانت جميلة كما يجب أن تكون سيدة. فهي جميلة كابنة الثلاثين مع أنها تناهز الآن الأربعين.

وبينما كانت تتقدم مادة يديها مبتسمة ملامحها الفاتنة، لاحظت مائي ما عناه ابنها جيري بقوله «أنيقة». لم يحدث أن شاهدت مثل هذا الشعر الأسود الجميل أو مثل هاتين العينين البنفسجيتين قبل الآن.

ويبدو أن مضيفها، غير الراغب، رق لها قائلاً:

ـ عزيزتي لينا.. يا لسحرك! مضى زمن طويل على زيارتك الأخيرة لأنديان ستون.

لم تكن مائي تعتقد أن وصيها والسيدة مايسون على وفاق إلى درجة التخاطب بالأسماء الأولى. وتقدمت مطمئنة كي يقدمها، فتأملتها لينا بابتسامة إعجاب:

ـ إذن هذه هي فتاتك الحلوة... أوه تريفور دفعني الفضول بعد حديث ابني عنها إلى المجيء لزيارتكما اليوم.

فرد تريفور ستار:

ـ يجب ألا تديري رأسها بكلامك هذا حقاً.. فأنا جديد على واجبات الوصي ولا أدري كيف أرعاها إن اغترت بنفسها.

ـ لكنني على ثقة من قدرتك على رعاية أي كان. فأنت تعرف تماماً كيف تدير أياً كان حول إصبعك، وتعرف كيف تصل إلى ما تريد.

ـ إن فكرتك عن سلطتي لمبالغة كبيرة.

لم يكن لابتسامته الباردة أثر على زائرته التي قالت:

ـ حسناً.. أنوي اليوم أن أدير أمراً ما حول خنصري... أتأذن لي باستضافة مائي في بيتي يوماً كاملاً قريباً؟

رد تريفور بنعومة:

ـ طبعاً.. هذا لطف منك.

تساءلت مائي لماذا إذن هذا الضجيج كله بشأن سماحه لها بزيارة «تشارمر» منزل آل مايسون؟ قالت السيدة مايسون بعزم:

ـ هذا رائع. والآن فلنحدد اليوم يا مائي.

لكن.. قبل أن ترد مائي سارع ليقول:

ـ لن نحدد الوقت قبل مضي وقت قصير على العطلة.. مر على مائي فصل دراسي قاس، وهي متعبة وتريد الاسترخاء في الوقت الحاضر. لكن فيما بعد ستزوركم طبعاً.

ردت الزائرة باستكبار وشبق:

ـ هراء... إن هذه الطفلة تشع صحة ونشاطاً... حقاً! لا أعتقد أن فصلاً دراسياً قاسياً قد يؤثر فيها.

ـ سيكون أمامها الكثير من الوقت للتمتع لاحقاً. لن تجديها إلا راغبة في تأخير هذه الزيارة في الوقت الحاضر.. أليس كذلك عزيزتي؟

والتفت إليها ليجمّد مائي بنظرته الباردة الزرقاء. فأدركت برعب حقيقي أنها تواجه وجهاً آخر من أوجه وصيها، فهو كما يبدو لا ينوي أبداً أن تتم تلك الزيارة التي لا يطلب تأجيلها فقط بل يحضر لقطع علاقتها بجيري، وذلك دون أن يغضب السيدة.

إذا وافقت على التلفظ بالكلمات التي يمليها عليها.. فهو سيعرف، كما ستعرف السيدة مايسون، أنها أقرت بالهزيمة.

www.liilas.com

وعرفت فجأة أنها لن تستسلم.. ولن تسمح بأن ترفض صديقها لأن نزوة وصيها تدعوها إلى تركه.

فكان وعلى الرغم من خفقان قلبها العنيف، أن قالت بثبات وتحد:

ـ لا.. سيد ستار، في الواقع أحب أن أزور السيدة مايسون في يوم ما من هذا الأسبوع. فلست تعبة أبداً.

لم تدر كيف انتقلت حدة غضب الوصي إليها.. فما عرفت إلا أن قشعريرة من استيائه وصلت إلى قلبها. ومع ذلك قال:

ـ إذا كانت هذه مشيئتك فليكن ذلك، حددي اليوم الذي يناسب السيدة مايسون.

فصاحت السيدة مايسون دون أن تخفي سعادة النصر:

ـ فلتكن الزيارة يوم الجمعة.. كوني عندنا في ساعة مبكرة حتى نتغدى وابقي إلى ما بعد العشاء.

لكن إحساس مائي بالانتصار كان مكبوتاً بشكل رهيب:

ـ شكراً لك كثيراً. يوم الجمعة موعد مناسب.. على الأقل...

التفتت إلى وصيها وكأنها ترجوه:

ـ أليس مناسباً؟

ـ طبعاً هو كذلك.

أحست مائي بإحباط. أنا السيدة مايسون فبعد أن حققت ما تريد، استأذنت طلباً للمغادرة وقالت لمائي بلطف:

ـ سيأتي جيري ليصحبك يوم الجمعة عزيزتي.

ردت بسرعة، تحس بأن رؤية جيري تزيد من توتر وصيها:

ـ لا داعي إلى مجيئه، إلا إذا كانت المسافة بعيدة.

ـ اوه.. لا تزيد عن ميل.. أليس كذلك تريفور؟

ـ لا.. إنها لا تزيد عن نصف ميل. خاصة إذا سارت مائي في غابة الصنوبر.

ـ اوه.. تلك الطريق.. لكن أتعرف الطريق؟

ـ سأدلها عليه بنفسي.

ـ حسن جداً.

وخرجت السيدة تختال وكأنها قطة راضية عن نفسها.

أما تريفور فتجاهل وجودها، ثم اتجه نحو مكتبه دون أن يوجه كلمة لها. سعت بعد فترة، وقلبها ينفطر غماً، إلى صحبة السيدة هدسون قائلة:

ـ هل لي أن أدخل وأتحدث إليك سيدة هدسون؟

ـ بكل تأكيد مائي.. ادخلي. اجلسي على هذا المقعد الكبير هناك واستريحي. أين السيد ستار؟

ـ في مكتبه.

ـ سيهتم بمراسلاته على ما أتوقع.

ـ لا.. فأنا أظنه غاضباً مني سيدة هدسون.

ـ اوه لا يا مائي! لا تظني هذا. قد تظهر عليه أحياناً سيماء البرودة واللامبالاة. لكن هذا لا يعني شيئاً.

ـ سيدة هدسون.. لماذا لا يحب عائلة مايسون؟

ـ ولماذا لا يحبهم؟ السيدة مايسون جارة قديمة هي معه على وفاق.

ـ لكنه لا يريد أن أصادقهما.

نظرت إليها السيدة بفضول.. ثم أجابت:

ـ ولماذا لا يريد؟

www.liilas.com

- حين أتت السيدة مايسون الآن تطلب مني زيارتها بعد الغد، بذل كل ما في وسعه حتى أرفض.. وعندما لم أرفض... غضب.. أعرف هذا.

- ربما كان من الأفضل أن ترفضي.

- لكنني أريد الذهاب سيدة هدسون. وليس هناك ما يحول دون ذلك، أو على الأقل لا أجد شيئاً.

- لن يشرح لك السيد ستار أسباب ما يفعل ويتوقع منك الطاعة دون أن تسألي.

صاحت مائي ساخطة:

- لكن هذه طريقة فظيعة للحياة. إنه لطيف معي في كل شيء تقريباً.. لكن ليس عليه أن يتوقع مني طاعة عمياء.

ردت السيدة بارتباك:

- مائي.. السيد ستار رجل يحسن تنفيذ ما يريد على طريقته.. هو سيكون لطيفاً معك بشأن أشياء كثيرة. ولكنه لن يرضى أن تعارضيه في أي شيء... ومن الأفضل أن تدركي هذا حالاً. وما ذلك إلا لسعادتك وراحة بالك.

ما كانت مائي من النوع الثائر المتمرد، لكن فكرة الطاعة العمياء، أثارت نعقلها، واستقلاليتها الطبيعية. كما أن الطاعة العمياء، تعني التخلي عن صداقتها لجيري مايسون. وهذا ما ليست مستعدة له أبداً. قررت عدم متابعة الحديث.

حاولت أثناء العشاء وفي اليوم التالي كله إيجاد فرصة للحديث مع وصيها، لكن الفرصة لم تحن إطلاقاً، وهي لن تطيق أن تزيده غضباً.

لكن كان هناك أكثر من الخوف من غضبه.. فقد كانت

تحس بحاجة يائسة لاستعادة علاقتهما السابقة.. فهي تتوق إلى سخريته وتسامحه الآن وعلى الأخص إلى رضاه أو إلى اهتمامه بها.

لذا، دهشت حين قال لها عند الفطور يوم الجمعة:

- ستذهبين اليوم لزيارة السيدة مايسون؟

ردت بتوق مقطوع النفس:

- أجل... قلت إنك سترشدني إلى طريق مختصرة.

- أجل.. طبعاً.. متى تودين الذهاب؟ في الثانية عشرة؟

- إنه لوقت مناسب.

- حسن جداً.. سأقضي معظم الصباح في مكتبتي.. وعندما تهيئين نفسك ادخلي علي وأعلميني.

لكنها، حين سعت إليه، وجدته يقف في الردهة منتظراً، نظر بإعجاب منتقد إلى تنورتها الحمراء وقميصها الأبيض.

- من كان يختار ثيابك في الأعوام الماضية؟ ليس كارولين على ما أعتقد؟

- اوه.. لا.. فأنا اخترت معظمها.

- هاه.. إن ذوقك رفيع ومتوهج.. حين نقصد المدينة في الخريف سنشتري لك بعض ثياب السهرة.

نظرت إليه بدهشة:

- لكن.. أقررت أن أرافقك؟

- أخالك بعد أن تعرفي نتيجة الامتحانات، وبعد أن تعتادي على فكرة انتهاء أيام الدراسة، ستكونين على استعداد للموافقة على الذهاب معي وعلى ترك المدرسة.

أحست بالامتنان والتأثر لأنه بدا مسروراً من فكرة مرافقتها

www.liilas.com

له كما أنه بطريقة ما يفضل أن ترافقه، ولا تريد أن تخاطر بإغضابه ثانية، فقالت:

- أرى أنك على حق.

عندما سارا في حديقة الورود في اتجاه غابة الصنوبر لاحظت أن تسامحه ما زال يرافقه، فقالت:

- أما عدت غاضباً من رغبتي في زيارة السيدة مايسون؟

- لكنني ما غضبت منك.

- بلى غضبت! وجعلتني أشعر باليؤس.

- صحيح؟ حسناً.. لا تتوقعي مني أن أحزن لأن غضبي أثر فيك. ويجب أن تعلمي أن ما أغضبني هو إصرارك على صقل صداقتك مع الشاب مايسون، رغم معارضتي.

دست ذراعها بذراعه، فبدت الدهشة عليه قليلاً:

- لكن سيد ستار.. لقد أعجبني ما رأيته منه، ثم ليس هناك من شيء خطير ضده.. أعني.. أن على الوصي أن يحب أصدقاء الموصى به جميعهم ما داموا محترمين وشرفاء..

- أرى أنك درست واجبات الوصي، فماذا عن واجبات الموصى به؟ أليس عليك إظهار بعض الاهتمام برغباتي؟

- اوه.. بلى، وأنا أفعل.. أعني.. سأفعل! فأنا أريد جاهدة أن أرضيك. لماذا لا تتوصل إلى حل وسطي؟

ابتسم قليلاً على هذا التصريح الساذج.

- أخشى أنني لست معتاداً على الحلول الوسطى يا مائي.

فصمتت، وحين نظر إلى وجهها العبوس ضحك وضمها إليه:

- اسمعي يا طفلتي. لقد تركتك كارولين حتى الآن طفلة،

لا تعي الدنيا. لكنني أريد أن تخوضي غمار الدنيا لتتلقي فيها الدروس.. لن تبقي بعد اليوم تلميذة لا أهمية لها. فأنت فتاة جميلة، ستصبح قريباً امرأة رائعة. فما دمت تحت وصايتي. سيكون لك وضع اجتماعي ومالي محدد.. و...

شهقت مائي وهي تسمع ما قاله:

- ماذا تعني بهذا؟

- أعني، حين يحين موعد زواجك، لن تكوني يتيمة مفلسة إذ سأؤمن لك ما يناسبك و...

أصيبت بالذهول والتأثر من كرم وصيها البارد:

- اوه! لم يكن لدي فكرة.. أعني.. ليس هذا ضرورياً أبداً! فأنا لست قريبتك!

- لكنك تحت وصايتي.

فكرت مائي في أن البسمة التي اعتلت وجهه هي أروع ابتسامة رأتها على وجه رجل فصاحت:

- اوه... إنك حقاً لمحبوب!

وضغطت على ذراعه التي تمسك بها، فضحك:

- حسناً.. ربما أنا كذلك أجدك محبوبة حين تتصرفين بشكل لائق.

بدت الدهشة عليها:

- ألا أتصرف عادة بشكل لائق؟

- بلى.. أنت طفلة طيبة، لكن ما أحاول أن أفعله، هو أن أجعل منك فتاة جميلة ثرية، ذات نفوذ معقول حتى تتزوجي زواجاً رائعاً. لذلك أتوقع أن يكون لي إشراف على من ستختارين من الرجال الذين ستقضين معهم أوقاتك. وليس

www.liilas.com

جيري مايسون الشاب، على سبيل المثال من الفتة التي أريد منك معاشرتها.

صاحت مائي مقاطعة:

- يالله! أنا لم أتحدث إليه إلا ثلاثة أرباع الساعة، ولم أفكر فيه قط من هذه الزاوية.

- وأنا سعيد بسماعي ذلك. لكن تذكري أن المرأة تختار زوجها من الوسط الاجتماعي الذي تدور فيه. ويجب ألا تحسبيني متقلب المزاج غير متعقل، إذا أشرفت على اختيار من تعاشرين.

- أجل.. فهمت ما تعنيه.

- فتاة طيبة.. لقد تفاهمنا الآن إذن.

لقد توصلا على الأقل إلى تفاهم ما.. وقال إنه يظنها محبوبة.. ولأن هذا التعبير صادر عن تريفور ستار فهو كثير برأيها.

توقف في تلك اللحظات أمام حافة الغابة وأشار إلى حقل أمامهما:

- اتبعي الممر المحاذي للسياج، وبعد اجتياز الحقل انعطفي يميناً فوق المرجة، وعندها تكونين في الطريق المباشر إلى «تشارمر»، هذا إذا لم يلقك جيري قبل هذا. ولا أحسبه إلا قادماً إليك.

- شكراً لك.

شكرته شكراً حاراً قبل أن يرتد على خدها مودعاً ليعود أدراجه.

ما إن بلغت نهاية الحقل حتى وجدت جيري ينتظرها..

كانت البسمة التي أضاءت وجهه الذي لوحته الشمس ساحرة وصريحة.. مد يده ليساعدها على اجتياز السياج.. ففكرت في ما قاله وصيها وإذا بها تجده على حق، فقد تقع أي فتاة في حبائل جيري الجذاب. لكن لا داعي للقلق الآن، فلا شيء جدّي، وما هما إلا شخصان يتمتعان بصحبة بعضهما بعضاً لا أكثر ولا أقل.

- سمعت أن لينا دافعت بشراسة يوم الأربعاء، وقد آزرتها مساعدة حليف في الداخل.

- أتقصدني أنا؟

ضحك جيري موافقاً:

- نعم أقصدك أنت. قالت لينا إنك كنت رائعة إذ أصررت بيرود على أن لا سبب يحول دون قضاء يوم مع أصدقائك.

ضحكت بدورها:

- لكنني أسفت لأنني اضطررت إلى معارضة السيد ستار الذي لا يود إلا ما هو في خانة مصلحتي.. إنه لطيف معي ومحب. لكنني وجدت مبرراً لموقفي، دون أن أرغب في أن أكون صعبة المراس..

قاطعها جيري:

- لا بأس في هذا، فلا حاجة إلى تبرير تصرفاتك لي.. لكنني مسرور لاتخاذك موقفاً، وليتك تواظبين عليه.

- اوه جيري، إنك تتحدث وكأنني سأواجه دائماً وصيي.

- لكن هذا ما سيحدث إذا رغبت في الاستقلال بنفسك.

- لا.. أنت لا تفهم! إنه عزيز وكريم.. ورائع.. حقاً.

- وهو ذكي جداً، لأنه أقنعك بهذا كله.

www.liilas.com

ـ هذا غير صحيح! إنه ذكي نعم.. لكن لماذا تظهر الذكاء وكأنه أمر مخز.

ـ بسبب الطريقة التي يستخدمه فيها.. طبعاً.

ـ جيري! ماذا تعني!

نظر إليها رفيقها بقلق، وقال متجهماً:

ـ ألم يتبادر إلى ذهنك بعد ماثي، أن الوصي، رجل خطير؟

* * *

٤ـ بين نارين

ـ لماذا تقول إنه خطير؟ كيف تستخدم هذه الكلمة ضد أي إنسان؟

ـ لكنها لا تستخدم ضد معظم الناس. ربما بالغت قليلاً في توجيهها إليه، لكن للأشخاص الذين لا رحمة في قلوبهم خطورة ما. ووصيك يا ماثي من هؤلاء الذين لا يعرفون الرحمة. ولا أقصد أنه خطر يتجول حاملاً خنجره في يد وقارورة أسيد حارقة في أخرى. لكنه إن أراد شيئاً، فلن يتردد في التضحية بمصلحة أي إنسان آخر.

ـ حتى.. وإن كان يحب ذلك الإنسان؟

ـ لا أحال تريفور أحب إنساناً قط.

صمتت ماثي بقلق، وبعد لحظات أمسك جيري ذراعها بطريقة لطيفة، وأخوية تقريباً. وقال لها:

ـ أعلم يا حلوتي المحبوبة، أنك تريدينني أن أقول إنه قد يحبك. لكنه لن يحبك.. لذلك لا تعذبي روحك بانتظاره لأنك ستشعرين بخيبة الأمل.

ـ لكنه يحبني.. أعلم هذا. لا أستطيع أن أشرح لك كيف أو مدى اهتمامه بي وتسامحه معي، إن الناس لا يتصرفون بهذه الطريقة إلا إذا كانوا يحبون أولئك الذين يعاملونهم بهذا الود.

www.liilas.com

- بلى.. يتصرفون هكذا.. على الأقل تريفور ستار يتصرف. يريدك أن تتعلقي به لأنه يعرف أنها الطريقة المثلى للسيطرة عليك، إنه يتخذ عاطفتك وسيلة. لكن قلبه بارد لا يعرف الحب.. وأؤكد لك أن بإمكانه فتنة عصفور فوق شجرة إذا صمم على هذا. فلا تتعلقي به ماثي.. سيحطم قلبك، قبل أن يرده إليك.

- اوه جيري.. لا تقل هذا! المسألة كل المسألة أنني أشعر بالسرور لانتمائي إلى شخص ما.. وأود لو أتلقى الحب.

نظرت إليه بسذاجة فقال برزانة:

- سيحبك أناس كثيرون في حياتك ماثي، وستكتشفين هذا بعد أن تتركي المدرسة وتخرجي إلى الدنيا.

- لكنني لم أترك المدرسة بعد.

وشرحت له البدائل التي تواجهها، فحثها على ترك المدرسة فوراً. فابتسمت مرتابة:

- لكن لماذا؟

أحست بالإطراء لاهتمامه العميق بما تفعل.. وقال لها:

- لأنني ولينا سنكون في بتسبرغ في الخريف. وإذا أحضرك إلى المدينة، فهذا يعني أن أمامي فرص كثيرة لنتنزه معك في المدينة.

- حسناً.. إن نجحت في الامتحانات، يكن لنا هذا.. مع أنني أعتقد أن علي إعطاء إنذار فصل كامل أو دفع الرسوم، أو شيء من هذا القبيل.

- اوه لا تقلقي، فلن يفلس هذا تريفور ستار.. إنه مخلوق من مال.

- اوه جيري.. تريفور ليس كما تصف! فأنا، لا أعرف أنه فائق الثراء. ألم ينذر أسلافه ثروة العائلة؟

- أجل.. أظنهم أحدثوا ثقباً في الكيس الموروث. تقول لينا إن كل ما في الديان ستون كان يتدفق بالألحان الجميلة الغالية الثمن حين كانت طفلة.. لكن وصيك على ما يبدو أصلح كل شيء. فله سمعة الساحر المالي.

- صحيح؟

في تلك اللحظة وصلا إلى بوابة «تشارمر» التي خرجت منها السيدة مايسون، وهي تبدو شابة في فستان حريري أزرق، فاستقبلتهما مرحبة بمائي واضعة خدها الناعم على خدها بتقليد ساحر لقبلة لم تكن تعني لها شيئاً لكنها كانت مبهجة منعشة.

سرعان ما وجدت مالي أن الحياة في «تشارمر» تختلف جداً عن الحياة في الديان ستون.. فليس في تشارمر نقص في المال، لكن لينا كانت تؤمن بأن تُحب بدلاً من أن يخشاها الناس، وكانت على وفاق كريم مع خادمتيها والجنائني، الذين بدا أنهم يعبدون الأرض التي تمشي عليها.

حين شرح جيري لأمه إمكانية ذهاب مائي إلى بتسبرغ مع وصيها، عبرت عن ظنها كذلك قائلة إن المدرسة مضيعة للوقت. لكن مائي قالت مبتسمة:

- لكنني ما زلت في السابعة عشرة.

- أجل.. ليس بالعمر المتقدم، صحيح.. لكنني كنت متزوجة وحامل بجيري في السابعة عشر من عمري.

- حقاً؟

دُهشت لأنها لم تتصور نفسها زوجة وأماً في هذه المرحلة

www.liilas.com

من نموها، فردت السيدة بابتسامة ساحرة:

ـ هذا صحيح.. ومخيف معاً. لكنني كنت جميلة حقاً. وأنت جميلة كذلك، وآمل أن يكون لك تفكيري السوي.

ردت ماثي بأنها لا تملك نصف خبرتها وتعقلها، وساد جو ودي محبب بينهما. وقال جيري:

ـ إذن، اتفقنا على أن تتركي المدرسة وتأتي مع السيد ستار إلى بتسبرغ في الخريف.

ابتسمت ماثي:

ـ حسناً.. يبدو وكأن الجميع متفق على هذا... السيد ستار موافق، وكذلك السيد فالكون.

ـ اوه... وهل التقيت بفالكون.

وعلقت أمه:

ـ إنه رجل مقبول.

ـ أظنه لطيفاً.. عرض علي تعليمي ركوب الخيل.

ـ يا لجرأته.. لعل تريفور حسده.

ـ في الواقع نعم.

فضحك جيري:

ـ اوه.. أخبرينا ماذا جرى.

ـ لم يقل إلا أنه سيعلمني هو بنفسه.

ـ هذا عظيم! لا بد أنه مصمم على أن يأخذ العزّاب دورهم في صف الانتظار. ترى هل سيسمح لي بتعليمك قيادة السيارة؟

كانت ماثي على يقين من رفضه، لكنها تهربت بلياقة:

ـ فلنتريث حتى نرى ماذا سيعلمني هو. لم أصل إلى هذا المكان إلا منذ أيام قليلة ولا أعرف حتى الآن ما هي خططه.

قالت لينا مايسون مفكرة:

ـ أنا دهشة لاهتمامه بك. ليس لأنك لست جميلة مثيرة للاهتمام عزيزتي، بل لأن أحداً لا يتوقع منه أن يهتم بك شخصياً.

ـ صحيح؟

هذا ما كانت تظنه في أعماق قلبها، ولعل أكثر ما كانت تخشاه أن يفقد اهتمامه بها.

تابعت السيدة مايسون وكأنها تفكر:

ـ لو نظر إليك على أنك ذات منفعة له. لارتبطت مصلحته بمصلحتك، ولفكر فيك ملياً. أعتقده سيزوجك زواجاً رائعاً.

فقال جيري:

ـ أجل.. لكنه «رائعاً» من وجهة نظره هو أم من وجهة نظرها هي؟

فسألته ماثي:

ـ أليست الوجهتان متطابقتين؟

ـ ربما، لكن إن لم تتطابقا، فأعرف تماماً مصلحة من سترمى أدراج الرياح... على كل، هل تحبين الخروج للنزهة؟ ثمة أماكن رائعة.

قفزت ماثي بفرح:

ـ أجل.. أحب هذا.

وابتسمت السيدة مايسون:

ـ أخشى أنني لست من هواة النزه، فاذهبا وحدكما. سأكون سعيدة، مع كتابي.

وكان أن انطلقت ماثي وجيري وحدهما، سعيدين بصحبة

www.liilas.com

بعضهما بعضاً. تسلقا التلال المليئة بالأشجار خلف المنزل، وراحت مائي تخبره عن حياتها المدرسية وعن عزلتها التي عاشتها تحت وصاية العمة كارولين.. وقال معلقاً:

ـ أذكر أن ليندا كانت تقول إنها باردة لا تهتم بأحد مثل الوصي الحالي.

ـ أبداً.. ليست مثله.

ـ لكنهما كانا يكرهان بعضهما بعضاً كرهاً شديداً.

ـ هذا ما عرفته. أنا لا أقدر على كره أحد من البشر، أتقدر أنت؟

ـ لا.. لا أستطيع.. مع أنني لست شخصاً عاطفياً.

فكرت مائي قليلاً في ما قاله ثم قالت:

ـ أكانا حقاً يكرهان بعضهما بعضاً أم كانت العمة كارولين هي الحقود؟

ـ لا أعرف عمتك كثيراً، كنت تلميذاً يومذاك، فلا أستطيع قول شيء عنها أما.. تريفور ستار فمخلوق عنيف مسيطر كل السيطرة على عواطفه.. وأنا آسف.

ضحكت مائي..

ـ لا بأس في هذا. أظنني أوافقك الرأي، مع أنني لست واثقة لماذا.. يتملكني إحساس خفي مضاد لما هو ظاهر منه، وأظن أن السبب واضح.. والآن حدثني عن نفسك.. تحدثنا بما فيه الكفاية عن أحوالي.

فابتسم جيري، وصمت قليلاً وكأنه يفكر في ما قد يثير اهتمامها. فتذكرت عندها قول وصيها عن أنه مبهرج مخادع، ولأنها تريده أن يدافع عن نفسه تاقت أكثر إلى ما سيقوله:

ـ أيمكن أن أسألك أمراً شخصياً جداً؟ (سألته).

ـ أجل.. بالطبع.

ـ سيبدو سؤالي وقحاً نوعاً ما.. لكن.. أتعمل لكسب رزقك؟

ضحك جيري كثيراً:

ـ لا شناعة في سؤالك، بل طبيعي جداً. فأنا لا أعمل شيئاً أتلقى عليه أجراً، إذا كان هذا ما تعنين.

خاب أملها فنظر إليها بمرح وتساؤل:

ـ أيهمك الأمر؟

ـ أعتقد.. إن على المرء أن يكسب عيشه من عرقه.

ـ لكنني، كما يقال، رجل لديه إمكانيات مستقلة يا مائي، لقد ترك والدي لنا حقوقاً في قسم من الأملاك وأورثني الباقي.

ـ لكن.. ألا تقوم بعمل غير العبث؟

ـ اوه.. يا للسماء! أنا أعمل، إذا كان هذا مقصدك.

ـ طبعاً هذا ما أقصد.. ماذا كنت تظنني أعني؟

ـ اوه.. فهمت! كنت تحسبني شاباً فاسداً وغير مسؤول، لا يعمل شيئاً لصالح نفسه أو لصالح الناس؟

هزت مائي رأسها، فتابع:

ـ ومن أين لك هذه الفكرة؟

بدا لها السؤال دفاعاً عن النفس، فصمتت دون أن تذكر صاحب هذه الفكرة لكن جيري أردف:

ـ سأحدثك عن عملي إذا أحببت. إنه مثير للاهتمام بشكل مفرط مع أنه ليس هكذا لمن يعرف عنه. فأنا أنظم التوادي

www.liilas.com

الرياضية للشباب في الأحياء الفقيرة من المدن الكبيرة.

روح المزاح والمرح غادرته وهو يتكلم، ولاحظت مائي أنه فعلاً يتحدث عن شيء يهمه جداً. فقالت:

- اوه جيري.. تابع.. فهذا مثير.

ابتسم، فأحست بالذنب لأنها اتهمته بالعبث.

- أقوم أحياناً بالتمويل بنفسي.. على الأقل في البداية، لكنني أركز على جعل النادي مكتفياً مادياً خلال سنة تقريباً فعلى الناس والمنظمات المشاركة في دعم أنفسهم ونواديهم.

- وهل ستقوم بمثل هذا العمل أثناء وجودنا في بتسبرغ؟

- أجل.. أتودين رؤية ما أعمل؟

- سأحب هذا.

لقد كان وصيها شريراً حين لمّح إلى أن جيري مسرف عاطل عن العمل! لماذا هذا الظلم؟ أيعتقد حقاً أن عمل جيري ليس عملاً حقيقياً؟ أم فسّر الوضع حسب رأيه لأن هذا يناسبه؟

كانت تفتش بيأس عن رد.. لكن جيري خلال هذا استمر شارحاً لها أعماله الماضية وخططه المستقبلية. فأصغت إليه، وعلقت، في محاولة منها للتخلص من قلقها الذي سرده تصرفات وصيها.

وصلا أثناء سيرهما إلى أرض تكتظ بالأشجار، فطلب جيري التوقف، ليريها مختلف معالم المنطقة. فهناك إلى اليمين، كان منزل «انديان ستون» الذي بدا كلعبة أطفال. وعلى بعد ميلين منه يقبع قصر غراي. فعلقت برزانة:

- أجل.. إنه أروع من انديان ستون.

فابتسم جيري:

- أما فكرت من قبل في أنه أروع من انديان ستون؟

- اوه بلى.. أخبرني السيد أنه كان ملكاً لعائلته وأطنه غير سعيد لأنه فقد هذا القصر.

- صحيح؟.. انظري، تلك هي الطريق التي سلكناها.

- وما تلك الطريق العريضة يساراً؟

- إنها تفضي إلى الجانب الآخر من الجبل. لكنها نادراً ما تستخدم وقد شقوا طريقاً بديلة على مستوى منخفض يمتد حتى بحيرة مينشغان التي لن تبدو لنا من هذا المكان.

مد يده إليها، وقد ظنها تريد التقدم في السير:

- آن لنا أن نعود الآن.

حين وصلا إلى مكان شديد الانحدار، أمسكها بساعدها فأعجبها دعمه لها، مع أن مساعدته لم تكن ضرورية، إلا أن التلامس الودي أسعدها وأبهج قلبها.

أمضت مائي أمسية مبهجة، فالأم وابنها لطيفان دون شك. وكلاهما يتمتع بالحياة بطريقة متسامحة ودية، وأكثر ما أسعدها ترحيبهما الحار بها في نطاق نظرتهما إلى الحياة.

لكن حين حانت ساعة العودة، وأخرج جيري السيارة ليوصلها، أحست بالرغبة في الطيران للوصول إلى المنزل الذي أحست فيه بالسعادة الحقيقية. أوصلها جيري إلى الباب هذه المرة، لكنه رفض الدخول معها لأسباب هي تعرفها، وقررت أن تغير نظرة وصيها إلى جيري.

استمر تصميمها هذا أثناء اجتيازها الردهة وصولاً إلى مدخل غرفة الجلوس المضاءة... وهناك توقفت.

فإذا أمامها مشهد كالذي طالعها للمرة الأولى، لكنه هذه

www.liilas.com

المرة كان يجلس وهالة من نور مصباح لطيف تلفه لا وهج شمس المغيب. وكان تعبيره هذه المرة، حين رفع نظره وشاهدها تعبيراً مرحباً فيه ابتسامة ودود.

دنت منه رأساً، إلى دائرة ذراعيه.. فقال لها:

ـ أهلاً بك حبيبتي!

وشدها لتجلس على ذراع مقعده.. لم يكن قد ناداها من قبل «بحبيبتي» وهذه كلمة لا يستخدمها عادة على ما تعتقد.

فقالت بالدفاع:

ـ أمضيت وقتاً رائعاً. لكنني لم أتأخر..

ـ لا يهم إذا كنت قد تمتعت.

ارتدّ إلى الخلف ليتأملها، كانت بسمته تتسع قليلاً، وفي عينيه الزرقاوين الباردتين، لمحة من التساهل.. سألته:

ـ اشتقت إليّ؟

ـ اشتقت إليك؟ ولماذا أشتاق إليك؟ عشت سنوات بدونك.

ـ لكن هذا كان قبل أن تعرفني.

رد ساخراً:

ـ هذا صحيح... حسناً.. كنت مشغولاً جداً حتى أشتاق إليك.

ـ أكنت مشغولاً؟

هز رأسه، وشد ذراعه حولها قليلاً، وقال:

ـ ألن تسأليني ماذا كنت أفعل؟

ـ حسناً.. ماذا كنت تفعل؟

ـ أفتش عن جواد.

ـ اوه.. صحيح؟ اوه كم أحبك! هل اشتريته لي حقاً؟

ـ أجل.

ـ اوه.. إن هذا لرائع! أنت لطيف طيب معي.. ولست أدري حقاً السبب.

ترك هذا السؤال يمر، بابتسامة.. وقال:

ـ أظنه سيعجبك. إنه كستنائي اللون، صغير، لكنه يعمل بجد ويقدر على حمل فارسة ليس لديها خبرة.

ـ وهل ستشرف أنت على تعليمي؟

ـ بكل تأكيد.

ـ ألن تترك المهمة للسيد فالكون؟

بدت راغبة في المزاح المزعج، وقد حققت مرادها فقد نظر إليها عابساً ورد بخشونة:

ـ لا.. وهل تريدين منه القيام بالمهمة؟

فصاحت مبتسمة وقالت بصراحة:

ـ اوه.. لا.. فأنا أفضل أن تكون أنت معلمي.

ابتسم عندما وجدها تشدّد على هذا، فأضاف:

ـ إنه رجل طيب، وخيال ماهر في الواقع، وقد أسمح له بأخذك معه في نزهات أحياناً.

ـ وهل ستفعل؟ هل الوقت متأخر الآن على رؤية الجواد؟

ـ أتريدين رؤيته حقاً؟

هزت رأسها إيجاباً، فأغلق الكتاب الذي كان يقرأ فيه ووقف:

ـ تعالي.

خرجا معاً من باب الردهة الجانبي ومنه إلى باحة المنزل

www.liilas.com

الخلفية. . كان هذا الجزء من «انديان ستون» غير مألوف لها، وهو يقودها إلى فناء مرصوف، يطل على مبان عدة فيها كاراج كبير ومخزن غلال وفيها بعيداً إسطبل.

وجدت مائي نفسها ترتجف من الإثارة، حين توقف تريفور أمام أحد أبواب الإسطبل. فهمست:

ـ أهو هنا؟

وقبل أن يرد، كان الحصان الكستنائي يجيبها، إذ رفع رأسه فوق القسم السفلي من الباب، ونظر إليها بعينيه الكبيرتين وكأنه يسألها أمراً. فتركته يشم يدها، ثم لفت ذراعها على عنقه اللماع تربت أنفه:

ـ اوه. . أيها الحبيب. ليت في يدي بعض السكر! آسفة جداً لنسياني أن أحضر القليل منه. لكنني سأعود في الصباح الباكر، حاملة السكر لك.

وقف تريفور ستار يراقب المنظر بسعادة، ثم قال حين وضعت مائي رأسها على جلده اللماع:

ـ أتظهرين دائماً حبك للأشياء والناس بهذه المبالغة؟

ردت متجهمة:

ـ لست أدري، لم يكن في حياتي «ما» أو «من» أبالغ في حبهم قبلك وقبل الجواد.

ساد صمت ثقيل غريب. . ثم قال:

ـ أنا سعيد لأنك وضعتنا بهذا الترتيب. . هل نعود الآن؟

عادا معاً إلى المنزل، وهي تمسك ذراعه تضغط عليها بمحبة:

ـ بكل بساطة. . لست أدري كيف أشكرك.

ـ لا بأس عليك يا طفلتي. . أعتقد أنني أفهم شعورك. .

ـ هل تفهمني حقاً؟ ليس هذا تدليلاً مادياً بحتاً بل محبة زائدة قد تفسدني. أتعلم أنني أحس بانتمائي الفعلي لك وهذا ما لم أشعر به عندما كنت تحت رعاية العمّة كارولين.

فضحك ساخراً وقال ببرود، وبازدراء ليس أخوياً أبداً:

ـ اوه. . كارولين! لا. . ما كنت لتنتمي إليها طبعاً.

لم يقل إنها تنتمي إليه، لكن المعنى موجود وبارز. وقالت:

ـ لا أحسب أن أحداً كان له وصيّ كريم مثلك.

ـ ما دمت طيبة، مطيعة، فلماذا لا أدللك؟

لم تكن هذه لحظات مناسبة لتحاسبه على آرائه المتعلقة بجيري، لكنها أحست بأنها غير وفية لجيري ببقائها صامتة، لكن لا ريب الفرصة آتية. وضلا في هذه اللحظات إلى غرفة. . فنظر إليها متسائلاً:

ـ حسناً مائي. . ماذا بك؟

حاولت إخفاء ما قد انعكس على وجهها من اضطراب:

ـ لا شيء.

ـ لا شيء؟ هه؟

أمسكها بذقنها المستدير، كما فعل في الأمسية الأولى، ونظر إليها بسخرية واهتمام، وهذا ما جعلها تحس لا بالولاء لجيري فحسب بل بخداع وصيها، فاصطبغ وجهها خجلاً. .

ضحك لهذا، ثم قبلها بلطف قبل أن يتركها قائلاً:

ـ حسناً. . اخلدي إلى فراشك.

www.liilas.com

عندما صعدت الدرج ببطء، تملكها انطباع غير مريح لا يفسر، إنه يعرف تماماً، سبب اضطرابها وسبب تضرّج وجنتيها.

• • •

٥ ـ لآلىء الحيرة

وجدت مائي خلال الأسابيع التالية الحياة مبهجة. فلم يعلمها وصيها الفروسية فحسب بل راح يخرجها معه ليزورا الأملاك. وبدا أنه يتمتع بصحبتها.

وقام كما توقعت بتعليمها قيادة السيارات، وقد كاد تدليله لها وتسامحه يدفعها إلى أن تطلب منه سيارة. وهي لو سألته فعلاً لما لبى طلبها.

لم تكن قلقة. لكن العديد من الناس قالوا إن تريفور ستار لا يهمه إلا مصلحته، وقد كادت في بعض الأحيان تتساءل عما إذا هناك أي دافع وراء كرمه ودلاله، وعما إذا كانت ستُدفع فجأة إلى تنفيذ أمر ما ضد إرادتها. لكنها كانت تؤكد لنفسها دائماً أن من السخافة خلق أسباب للقلق. ولا بد أن سبب هذا كله هو تعلقه بها بطريقة ما كان يتوقعها. وأحست بمشاعر دافئة راضية في أعماق قلبها من جرّاء هذه الفكرة.

حتى جيري ما عاد مدار جدال. فبعد أيام من زيارة قصر «تشارمر» سافر ليحل معضلة ما برزت في أحد نواديه.

زارها ليشرح الوضع، ليبرّر سفره المفاجىء. لكنها كانت في تلك الأثناء لسوء الحظ في حديقة الورود، وعندما فتحت له الخادمة الباب، قالت بغباء إنها غير موجودة، فكان أن ذهب

www.liilas.com

دون أن تراه لكنها استلمت منه رسالة ودية يشرح لها فيها ما حدث. وقد قال في رسالته إنه ولينا مسافران إلى أوروبا في شهر أيلول، وانه قد لا يعود إلى القرية قبل سفرهما. لكنه أضاف أنه سيراها بكل تأكيد في بتسبرغ في الخريف.

أحست بخيبة الأمل لإيقاف هذه الصداقة اللطيفة فجأة، لكن غيابه من جهة أخرى، أزال مصدراً خطراً كان قد يسبب لها خلافاً مع وصيها. وأحست بحنين يشوبه الارتياح والخيبة. لكنها بدافع الولاء لجيري، طرحت موضوعه مقدمة عرضاً عن الأعمال الجيدة التي يقوم بها. وتمنت لو يتأثر وصيها بما قالته بدل الإصغاء مبتسماً بطريقة لا تنم عن شيء محدد، كدهشة أو إعجاب. وفي النهاية استجمعت شجاعتها لتقول بحزم:

ـ وبذلك ترى أنه ليس كما نظنه شاباً خليعاً.

رد بأدب:

ـ هذا ما يبدو.

ثم غيّر الموضوع، فعلمت أنها لن تستطيع التطرق إليه ثانية دون إظهار اهتمام خاص به لا حاجة إلى إظهاره.

ودت لو ترد على رسالة جيري شاكرة، لكن لو أراد المراسلة، لكتب لها عنوانه في الرسالة، وهذا يدل على أنه مراسل سيء، ويفضل عدم البدء بما قد يسبب له مشقة.

كان هناك أثناء غياب جيري، رفيق آخر راغب في تمثيل دور الرفيق الممتع وهو جيروم فالكون.

لم تكن مائي تلك الساذجة إلى حد ألا تعرف أن الثري الشاب معجب جداً بها، كما أنها لم تكن مترفعة حتى عدم التمتع بهذا الواقع.

ثم إن جيروم ذا طبيعة طيبة، رفقته ممتعة لأنه سهل المعشر، وسيد مقتدر. وقد سر بها لأنها كانت تهتم بمشاكل إدارة الأملاك، فهو من النوع الذي يعتبر النساء عاجزات.

لكن، ما إن أدرك واقع حبها لسماع ورؤية الأشياء ذات العلاقة الوثيقة بأملاك أو بأملاك وصيها، حتى أبدى بهجته باصطحابها إلى أي مكان، باذلاً جهده ليفهمها كل الأمور التي تثير اهتمامها.

صعب عليها، معرفة مدى موافقة تريفور ستار على هذه الصداقة، لكن بما أنه لم يعرقل هذه المسيرة، فقد افترضت مائي موافقته عليها.

عندما وصلت نتيجة الامتحان، كانت على موعد مع جيروم، الذي كان من أول المهنئين بعد وصيها، فقد قال وهو يفحص بدقة سجل العلامات:

ـ عظيمة جداً علاماتك!

ـ لا.. ليس للعلامات ميزة خاصة فلست متوقفة أو مميزة.. إنها علامات محترمة، وهذا كل شيء.

ـ لكنها تظهر ذكاءك!

ضحك وصيها:

ـ هي علامات تمكنها من ترك المدرسة، وضميرها مرتاح.. إذا كانت ترغب.

سارع جيروم يقول:

ـ اوه.. ستترك المدرسة طبعاً، ألن تتركيها مائي؟

استعادت مائي نتيجة الامتحانات ووقفت تنظر إليها مبتسمة دون اتخاذ قرار، ثم رفعت نظرها فرأت عيني وصيها ثابتتين

www.liilas.com

عليها. فلاحظت مذهولة لا الاهتمام الشديد فحسب، بل لمحة إثارة بهما. فحدقت فيه بعينين متسعتين، وسألته بسرعة:

- أتريد مني ترك المدرسة؟

- يا عزيزتي، أريد منك أن تتبعي ميلك في هذا الشأن.. إنها حياتك لا حياتي.

- لكن، هل ستكون سعيداً إذا تركت؟

ابتسم لها بطريقة ذكرتها بتأكيدات جيري بأنه قادر على إغواء عصفور على الشجرة إذا أراد:

- حسن جداً يا مائي.. أعترف بعد أن أمضيت معي هذه الأسابيع الأخيرة، أنني سأشتاق إليك كثيراً إذا قررت الابتعاد عني. من ناحية ثانية...

قاطعته وهي تكاد تجهش بالبكاء:

- اوه يا حبيبي.. لن أذهب!

ركضت نحوه وارتمت عليه عاقدة ذراعيها على عنقه، وهذا ما جعل جيروم فالكون يضحك معلقاً:

- هذا نكران للذات تستحقه يا عزيزي تريفور!

لكن تريفور ستار لم يقل شيئاً، بل كان ينظر إلى المخلوقة المفعمة بالحيوية، إلى الشابة المتعلقة به، اكتسى وجهه لحظات نظرة ذاهلة.. قالت مائي بإصرار:

- سأبقى معك.

رد عليها بهدوء بارد:

- يا طفلتي العزيزة، سأكون مسروراً، إذا كان هذا ما تريدين.

وأحنى رأسه ليقبل رأسها قبل أن يتركها.

تأثرت مائي كثيراً، ليس لأنه أقرّ بأنه سيفتقدها، بل لأنه استخدم تعبير «إذا قررت الابتعاد عني» لو شهد جيري هذا المشهد لرأى بأم عينه الرابط الوثيق بينهما.

وقال جيروم:

- حسناً.. لقد تمت تسوية هذا.. فماذا عن النزهة مائي؟

نظرت إلى وصيها متسائلة:

- هل أذهب؟

- بالطبع يا عزيزتي.

لم يكن جيروم فالكون بالرجل المهذب فيما يتعلق بمشاعر الآخرين، لكن عندما كان يسير الهوينا على ظهر جواده مع مائي، قال وكأن ما لاحظه يدهشه:

- أنت وتريفور متفقان كل الاتفاق؟

- أجل.. ونحن إلى ذلك متعلقان ببعضنا بعضاً.

وتذكرت ما قاله جيري عن أن تريفور لم يتعلق قط في حياته بشيء أو بشخص ما.. ربما كان لجيروم النظرة نفسها، لأنه قال بعد لحظات تأمل:

- تريفور شخص غريب الأطوار... لقد نجحت في جعله يتعلق بك وهذا لجدير بالثناء حقاً.

أحست بأنها لم تعجب بجيروم قط كما أعجبت به الآن.. فهو لم يحاول من قبل التساؤل عن مدى تعلق وصيها بها، كما لم يحاول عزو الأمر إلى دافع خفي. قد يصل أشخاص ببطون صريحون مثله إلى الحقيقة المجردة بسهولة أكثر من الأذكياء المفكرين. فابتسمت له وقالت:

- اوه.. إن مرد هذا، على ما أعتقد، إلى عدم وجود من

www.liilas.com

يتعلق به من قبل.

- ربما.. على كل الأحوال... المهم هو اهتمامه بك وتسامحه معك. إنك ستمضين وقتاً رائعاً في المدينة هذا الخريف يا ماثي.

ضحكت مسرورة:

- صحيح؟

- أجل... أتحسين بأنك كبرت اليوم؟

- لا.. ولماذا اليوم بالذات؟

- لأنك تركت المدرسة قطعاً.. وخطوت الخطوة الأولى لتكوني امرأة ناضجة.

ردت ماثي بتمهل:

- صحيح.. أعتقد هذا. ربما أحس فعلاً بأنني مختلفة قليلاً. خاصة وأنني سأكمل السابعة عشرة بعد يومين. وهذا يشكل فارقاً كذلك.

- عيد ميلادك يوم الخميس؟

- أجل.

- لماذا لم تخبريني؟

- بل لماذا أخبرك؟

- حسناً.. يهمني الأمر.

ضحكت ثانية وهزّت اللجام بيدها فانطلق الجواد الكستنائي راكضاً، وما عاد هناك مجال للحديث.

مرا في طريق العودة بقصره وأصر على دعوتها إليه:

- ثمة ما أود أن تريه.

- حسناً.. لكن يجب ألا تتأخر.

لم تكن هذه الزيارة الأولى لها، فقد أتت قبلاً للعشاء، مع وصيها، لكنها هذه المرة استطاعت أن تلقي نظرة شاملة على القصر في ضوء النهار.. وقالت معلقة باحترام:

- إنه فعلاً منزل عظيم!

- أجل.. لكنني أرى أحياناً أن الديان ستون أكثر جاذبية. ولعل السبب وجودك فيه.

فابتسمت ماثي لتعليقه، فهي كذلك تؤمن بأن الديان ستون أكثر جاذبية. حين أدخلها إلى المكتبة الضخمة المغلفة بالخشب الغامق اللون ليقدم لها الليموناضة، أحست بالعظمة، وكأن القصر عاش أكثر من زمانه، حتى كاد لا يعرف السبيل إلى المحافظة على تلك العظمة في عالم متغير جداً. وسألته وهي تستدير متأملة الصمت حولها:

- ماذا أردت أن تريني؟

تنحنح جيوم:

- حسناً.. في الواقع، إنها هدية عيد ميلادك.

- لكنك ما علمت بموعده حتى اليوم.

- صحيح.. لكن ما إن ذكرته حتى فكرت في أن أهديك شيئاً. سأذهب لأحضره.

وخرج قبل أن تحتج.

لكن، لم تتح لها الفرصة للتفكير قبل أن يعود.. فقد وضع أمام ماثي المذهولة، سواراً وقرطين من الطراز نفسه.

كان جمال السوار والقرطين وحشياً تقريباً... فهما جميعاً مزيج من أحجار كريمة ثمينة وعمل يدوي زخرفي.. ومع أنها قد لا تعتبر من المجوهرات الثمينة جداً، إلا أن صناعتها

www.liilas.com

اليدوية، وعمرها، بضعفيان قيمة لا بأس بها عليها... وقالت:

- جيروم.. إنها فعلاً جميلة! لكنني لا أستطيع قبول شيء كهذا منك.

- بل تستطيعين القبول. إن هذه ستكون رائعة عليك لأنها غنية بالألوان غناك أنت بها.

- هذا لطف زائد منك.. لكنني حقاً لا أعتقد...

- أرجوك اقبليها ماثي. ستبدو جميلة عليك. ربما أنت ما زلت صغيرة على التزين بها إلا أنها مناسبة في السهرات. وفيما بعد ستتزينين بها.

مدت ماثي يدها مترددة، فلمست السوار العريض الجميل.

- جيروم.. إنها هدية ثمينة...

- لا.. إنها أحجار كريمة ثمينة بعض الشيء.

- لكن صناعتها اليدوية رائعة!

- أجل..

أرادت ماثي أن تقول له إنه يجب أن يهدي هذه المجوهرات التي كانت في العائلة منذ زمن، إلى الفتاة التي سيتزوجها، لكنها عرفت أن مثل هذا الكلام سيعقد الأمور بدل أن يبسّطها:

- جيروم، لا تحسبني غير شاكرة، فأنا مؤمنة بأنها حلي رائعة ومن اللطف منك أن تهديني إياها.. لكن.. لكن صدقاً... لا أظنني قادرة على قبول مجوهرات منك الآن... فلا أحد يهدي شيئاً كهذا بعد تعارف لا يتعدّى الأسابيع.

- دعك من هذا! فنحن لسنا معارف فحسب. فأحسبنا صديقين مقربين.

ردت تحاول ألا تجرحه:

- أوه.. بكل تأكيد!

- حسن إذن. إن الصديق المقرب يمكنه إهداءك هدية عيد ميلاد.

وبدا عليه التجهم وهو يردف:

- إنها لا ترقى إلى مصاف الجواهر ماثي.. أعني، ليست كالألماس أو أي شيء من هذا القبيل.

ضحكت ثم عضت شفتها:

- أعلم... اسمع جيروم.. أحب أن أقبلها لأنني ما شاهدت مثلها قط. لكن أمهلني حتى أسأل تريفور أولاً.

- تريفور؟ وما شأنه في هذا؟

- حسناً.. إنه أفضل حكم في هذه الأمور.. أرجوك جيروم. سأشعر بالراحة، هكذا.

- حسناً.. خذيها معك واسأليه.

قالت له إن من الأجدى أن تسأله أولاً، فهي إن أخذتها الآن سيصعب عليها رفضها في ما بعد. لكن ربما فكّر في هذا الاحتمال كذلك، لأنه وضع الحلي في يدها وأطبق أصابعها عليها، قائلاً بإصرار:

- خذيها معك وانظري ما يقوله تريفور.

فما كان أمامها إلا أن أخذتها لعلمها أن الكرم الصادق هو الدافع أجابت:

- شكراً لك مراراً يا جيروم، إنها بادرة لطيفة منك في كل الأحوال.

أرجعها إلى الديبان ستون، لكنه رفض الدخول، ولعله ظن

www.liilas.com

أن إرجاع الحلي إليه سيكون سهلاً في حال وجوده. أما مائي فقد رأت أن من الأسهل عليها بحث الأمر وحدها مع وصيها.

أصبحت معتادة على الإسراع إليه لإخباره بكل شيء كانت تقوم به.

لكن هذه المرة، قررت التريث إلى ما بعد العشاء.. وما إن جلسا في غرفة الجلوس يرتشفان القهوة حتى قالت له:

ـ أراد جيروم أن يقدم لي هدية عيد ميلاد.

ـ صحيح؟ ماذا أراد أن يهديك أم الأمر سر؟

ـ اوه لا.. ليس سراً.. لكنه معضلة. فقد أراد إهدائي أو فلأقل أهدائي مؤقتاً.. سواراً وقرطاً كانا لأمه.

ـ وماذا تعنين بالإهداء المؤقت؟

ـ حسناً.. أترى، قلت له إنني لن أقبل الهدية حتى أسألك.

ـ اوه.. هكذا إذن... هل اعتقدت أن الهدية قد تحمل مضامين محددة؟

ـ لا.. ليس بالضبط.. لكن ليس من اللائق قبول الحلي من رجل..

بدا على وصيها السرور والتسلية:

ـ بل إنها لائقة في كل الظروف. وأعتقد أن قصدك هو أن الفتاة لا تقبل بالحلي من رجل لا تعرفه إلا قليلاً.

ـ أجل.

ـ أهي غالية الثمن؟

ـ يقول لا. لكنها جميلة جداً.

ـ فلأرها إذن.

حين أحضرتها، مد يده ليأخذها، ووقفت مائي تترقب حتى علّق أخيراً:

ـ جميلة جداً.. صاغة فرنسية يدوية من القرن السابع عشر... هل جربت وضعها؟

ـ لا.

ـ لا؟ أجريت عليها تعديلات حديثة فقد وضعت لها أقفال لولبية أتعرفين هذا؟

ـ أجل.

ـ لماذا لم تجربيها؟

ـ ظننتني لن أتخلي عنها بسهولة، حتى وإن لم توافق.

فضحك لصراحتها:

ـ تحلي بها الآن، ودعيني أراها عليك.

حين استدارت عن المرآة لتواجهه، رأته يلتقط أنفاسه قليلاً. وقال، مرتداً في كرسيه:

ـ أجل.. إنها غير عادية.. ويجب أن نشتري فستاناً حريرياً يلائمها... فستاناً بسيطاً، ذا خطوط كلاسيكية قديمة، وقماش فاخر.. سنرى ماذا نفعل بشأن هذا الفستان حين نذهب إلى بتسبرغ.

ـ أتعني.. أنني أستطيع الاحتفاظ بها؟

ـ لست أرى ما يمنع. إذا كانت تسعدك.

اكتشفت فيما بعد أنها لم تكن الوحيدة الدهشة من هذا القرار.. ففي اليوم التالي عندما أرت السوار والقرطين للسيدة هدسون وأخبرتها بأنها هدية من السيد فالكون أظهرت الأخيرة عدم رضاها:

arab.liilas.com

ـ إنها ليست هدية تقليلها من سيد، إلا إذا كنت ستتزوجين به.

ـ اوه سيدة هدسون، وهل مثل هذه الأمور مهمة في أيامنا هذه؟

لكن هذا ما كان عليه رأيها قبل أقل من أربع وعشرين ساعة. ردت مديرة المنزل باتزان:

ـ هذا ما أظنه بكل تأكيد. خاصة إذا كانت الشابة قد تربت تربية رفيعة، وكان على السيد فالكون أن يفهم الأصول فيمتنع عن إهدائك شيئاً كهذا. لا أحسب السيد ستار موافقاً عليها.

ـ ما قصد السيد فالكون إلا أن يكون لطيفاً. أما السيد ستار فقال إن لا بأس بالأمر.

ـ السيد ستار قال إن لا بأس؟ وهل وافق على أن تقبلي هدايا من الحليّ؟

ـ إنها هدية واحدة، ولا تنسي أن المناسبة تتعلق بعيد مولدي.

ـ حسناً.. إذا قال السيد ستار إن لا بأس في هذا، فليس لي أي قول أضيفه. لكن الأمر غريب.. إلا إذا...

وصمتت تنظر إلى مائي باستغراب:

ـ إلا إذا ماذا سيدة هدسون؟

ـ لا شيء.. كنت أفكر في صوت عال.

أحست مائي بالغضب، وقد طغى هذا الإحساس على سعادتها بالهدية. لكنها أقنعت نفسها بأن السيدة هدسون متزمتة وتقليدية. إن المسألة كلها، جعلتها تنظر إلى جيروم نظرة مختلفة وهذا ما أظهرته أمام وصيها:

ـ بدأت أدرك أن جيروم رجل رائع.

ـ حقاً؟ بسبب الحليّ؟

ـ لا.. ليس بسبب الهدية بل بسبب الطريقة اللطيفة التي أقنعني بها. وأستطيع القول إنه شخص عطوف كريم. ولا يبدو أنه يحب السكن وحيداً في قصره الضخم.

ـ هناك نساء كثيرات مستعدات للتعويض عنه في هذا السياق.

بدت الدهشة على مائي وسألت ببراءة:

ـ صحيح، أتعني أن النساء يجرين خلفه؟

ـ يا طفلتي العزيزة. أظنه أفضل صيد ثمين في البلاد كلها. إنه رجل فائق الثراء، ذو مركز محترم، وهو إلى ذلك جذاب.. ومع أنني لا أدعي فهم وجهة النظر النسائية في الموضوع، إلا أنني أستطيع القول إنه سهل الانقياد وهذا يعني أنه زوج مطيع.

ـ أجل.. أعتقد هذا. ألا تظنه يفضل البقاء أعزب.

ـ لا أعرف سرّه. لكنه شخص مثير للشفقة يعيش وحيداً وسط عظمة وهمية محيطة، فلا أرى في الواقع لماذا لا يسلك الطريق البديهي للخروج من هذا.

ـ أتعلم لقد قال إنه يعتقد إن انديان ستون أجمل من قصره.

ـ وما الذي دفعه إلى هذا القول؟

ـ اوه.. لست أدري.. أظنني قلت شيئاً عن عظمة منزله.. فعلّق على كلامي، قائلاً إنه يعتقد أن انديان ستون أجمل من منزله وأروع. وهذا ما أظنه كذلك.

ـ أتعتبرينه حقاً أروع؟

www.liilas.com

ـ اوه.. أجل! ولن أرغب أبداً في العيش في قصر، إنه ضخم مرعب، وفيه شيء ميت تقريباً، أو يكاد يموت. وكأن لا معنى لهذه العظمة.

ـ العظمة فارغة إن لم يكن هناك من يملأها ويعطيها الامتياز. وفالكون، رغم طيبته رجل عاديّ الشخصية. وقصر غراي لا يحتاج أبداً سيداً ذا شخصية عادية.

ـ أعتقدك على حق.

كانت متأكدة من أن رأي تريڤور البارد الموضوعي هو رأيها لكن بتعبير مختلف.

ـ تظن السيدة هدسون أنه يجب ألا أقبل هدية كهذه.

ـ لم يطلب أحد منها رأيها.

ـ اوه.. لقد أريتها الهدية فعلقت بالقول إن الشابة التي ربيت حتى تكون سيدة لا تقبل شيئاً كهذا، إلا إذا كانت متزوج بالرجل الذي قدمها لها.

رد تريڤور دون اهتمام:

ـ ربما أمل فالكون أن يقدمها إلى الشابة التي سيتخذها زوجة.

صاحت مائي:

ـ اوه.. لا!.. لا أظنه يفكر في هذا المنحى. كان يتحدث عني قبل ساعة وكأنني طفلة.

ـ قلت لك إنه لا يبوح لي بأسراره.. لكن لا تحملي الأمر على محمل الجد. فأنت أصغر من أن تحملها بجدية كبرى... ويمكن أن أقول إن فالكون يعرف هذا أكثر من غيره.

ـ أتمنى هذا!

ـ وهل يهم هذا كثيراً؟ أعني لو نظر إليك بطريقة أخرى، لاعتُبر صيداً ثميناً للزواج.

صاحت مائي بقلق:

ـ لا أريد التفكير في مثل هذا الآن... أريد فقط استكشاف ما في الدنيا من مباهج أولاً.

ـ طفلة حكيمة.. نحن في مطلق الأحوال مسافر إلى بتسبرغ في الأسبوع المقبل. وبهذا سيكون أمامك وقت لملء الفراغ والتفكير، في فالكون.

• • •

www.liilas.com

٦ ـ الوجه الآخر

كما كانت الحياة في انديان ستون جديدة على مائي، كذلك كانت الحياة في المدينة، التي فتحت فصلاً جديداً من كتاب الحياة أمامها.

لم تكن مائي وبسبب معاملة العمّة كارولين لها قد زارت مدينة كبيرة إلا ليضع ساعات وهي لم تكن قد رأت من المدن إلا ما تسمح لها نافذة التاكسي برؤيته وذلك أثناء انتقالها من محطة قطار إلى أخرى.

لكن بتسبرغ تعتبر أكبر مدينة في بنسلفانيا بعد مدينة فيلادلفيا التي هي مدينة للفنون والموسيقى والتاريخ والثقافة، قدمت إليها بلهفة، وبإحساس طائش للحياة.

لم يكن منزله الصغير في ضاحيتها المليئة بالأشجار شيئاً يذكر أمام انديان ستون، لكن كان له سحره الخاص، فأثاثه يدل بوضوح على ذوق الوصي المثير للإعجاب.

لم يكن فيه عمّال إلا خادماً وزوجته لكن مائي بعد العشرة وجدتهما أكفأ من عشرة خدّام. فهما المسؤولان عن الطهي وتقديم الطعام في الحفلات الأنيقة التي وجدت أنها جزء من الحياة هنا.. وهما عائلة تدرك أن المطلوب خلال إقامة سيدهم في المدينة المستوى الرفيع من الخدمة.

أما غرفتها فليست كبيرة كغرفتها الحبيبة في انديان ستون، لكنها جميلة الأثاث، أنيقة تشبه غرفة جلوس أكثر منها غرفة نوم.

كانت تعرف غريزياً متى تنسحب بلياقة، مع أن وصيها ما أحب أن تفارقه أبداً وهذا أكثر مما يُفترض به.

وكان عليها بادئاً ذي بدء شراء ثياب تليق بمحيطها الاجتماعي، وهنا وجدت مائي نفسها مقطوعة الأنفاس من البهجة.

لم يكن هناك تسرع، أو فخامة في شراء الثياب بل كان كل ما اشتراه لها جميلاً، فيه غاية الذوق، وقبل أي شيء آخر، كان ما اشتراه يبرز شخصيتها المستقلة.

أذهلتها معرفته بثياب النساء. لكنها سرعان ما اكتشفت أنه يواجه المشكلة من زاوية أخرى فهو لا يرضى إلا بالأفضل. كان لا يتساهل في اختيار ما لا ينسجم مع ذوقه العام، مما حدا مائي إلى الاحتجاج في إحدى المرات لأنه رفض شراء ثوب أرادته.

ـ لكنني أنا من سأرتدي هذه الملابس.

ـ وأنا من سينظر إليها.. وأنا أريدك أن تظهري في أفضل حلة وأريد أن ترتدي أجمل الثياب.

ـ لا تتصرف على هذا النحو.

بدا دهشاً:

ـ وكيف أتصرف؟

ـ إنك تتصرف وكأنني أمة وعبدة لديك... تلبسني الثياب وكأنك تريد عرضي في سوق النخاسة.

arabic-novels.com

شاهدت الدهشة تتحول فجأة إلى غضب فارتدت فوراً تمد يدها باحتجاج:

- أنا آسفة... لم أقصد هذا!

ثم لاحظت أن غضبه قد تلاشى أو منعه من الظهور.. إذ أمسك بيدها الممدودة ضاحكاً، وقال:

- أنت عبدة مذللة.. بكل تأكيد.

- أجل.. أعرف.. وأنا.. أعني ما كان يجب أن أقول هذا.. ولست أدري لماذا تفوهت بذلك.

- اوه.. أظنني أعرف.. فقد لاحظت بوادر تشددي كوصي. وقررت وضع حد لهذا في الوقت المناسب.

اقتربت منه، خائفة منزعجة تضع ذراعها في ذراعه:

- لا.. لم يكن هذا قصدي.. كنت فقط مشاكسة وناكرة للجميل.

لامس خدها ضاحكاً ثم صرف النظر عن الموضوع. لكنها تذكرت فيما بعد، أنه نفذ ما يريد، وكانت هي من أحست بالذنب. ثم حين شاهدت الفستان الذي اختلفا عليه، كانت مسرورة للاعتراف بأنه على حق وأنها مخطئة. لكن أجمل الفساتين، كان ذاك الفستان الذي اختاره خصيصاً لترتديه عندما تتزيا بحلي جيروم فالكون.

كان ذا تفصيلة رائعة وخطوطاً أنيقة وخصراً مرتفعاً وياقة منخفضة تكشف عن عنقها البض. ووضعت فوق الكم الضيق الطويل السوار البربري الجمال، ثم سرّحت شعرها الأدكن الكثيف إلى الخلف تاركة أذنيها الجميلتين معروضتين للعيان يتدلى منهما القرطان الرائعان.

قال تريفور ستار:

- أنت جميلة جداً يا مائي.

ثم أضاف متنهداً:

- لكنني لن أستطيع الاحتفاظ بك طويلاً معي!

- هراء! أفكر أحياناً في عدم الزواج لئلا أتركك.

ضحك كثيراً وهو يسمع كلامها هذا:

- لا أظنني سأطلب منك هذه التضحية يا عزيزتي. لكنني آمل حين تختارين زوجاً أن يكون ممن يسكنون قريباً مني.

وتذكرت أنه لم يشجع جيري، وأرادت أن تقول له هذا، لكنها فضلت أن تترك الموضوع في تلك اللحظات، خاصة وهي ما عادت تسمع عنه شيئاً منذ أن غادر نشارمر. ولم يصلها منه إلا رسالة واحدة وعدها فيها بأن يريها أحد الأندية التي يؤسسها.

أما جيروم فقد أرسل إليها رسالتين من قصر غراي وذلك في أقل من شهر. وها هو الآن، كما يبدو، قادم إلى بتسبرغ وبذلك سيوقر على نفسه كتابة الرسائل. قالت مائي بعد أن وعدها وصيها باصطحابها لحضور مسرحية غنائية:

- من الأفضل إذا وصل جيروم قبل الوقت المحدد، أن يرافقنا إلى المسرح.

- أشك في أن يكون من هواة المسرح!

- هذا صحيح، لكن هذه المسرحية رائعة.

- نعم هذا ما أظنه. فأصحاب الحناجر الجميلة نادرون. لذا أعتقد أن لأجواء هذه المسرحية الغنائية ميزة خاصة. لكنني أحذرك منذ الآن، فإن حاول أن يقيس الموسيقى بقدمه فسألقيه

www.liilas.com

من المقصورة إلى الأسفل.

ضحكت مائي:

- لن نقبل بأن يرافقنا إلا إذا أظهر علامات الحماس للذهاب.

لكن جيروم بدا في شوق إلى فضاء سهرة بصحبة مائي في أي ظرف كان، خاصة في المسرح. وقال له تريفور بنفاذ صبر:

- يا عزيزي فالكون، إن المسرحية تروي قصة حدثت قبل زمن.

- صحيح؟.. ما هي.. أتروي قصة أبطال من العصور الوسطى؟

- لا.. بل قصة كاهنة وثنية.

- آه.. هذا يردنا إلى التاريخ.

فابتسمت مائي وقالت محذرة بلهجة ودية:

- يقول السيد ستار إنك لو حاولت أن تقبّل الموسيقى بقدمك فسيرميك من المقصورة.

سألها جيروم بعدائية خفيفة:

- أقبّل الموسيقى بقدمي؟ ولماذا أفعل؟

- لأن الجميع تقريباً، يظهرون في وقت من الأوقات، إعجابهم بطريقة مثيرة.

مساء الخميس حين وصل إلى منزل الغابة الصغير، ليقلّ مائي ووصيها بسيارته، كانت مائي تنزل السلم مرتدية الثوب المطرز، ومتزينة بهدية عيد مولدها التي قدمها لها جيروم، الذي صاح وهو يتقدم إلى أسفل الدرج محدّقاً فيها:

- إن هذين القرطين رائعين عليك.

ابتسمت، واحمرّت قليلاً:

- سيبدو رائعاً على أي كان جيروم.

- لا.. لقد تزيّنت أمي بها لكنها ما كانت رائعة عليها كما هي عليك. أنت فيها تبدين كبطلة أسطورية خارجة من التاريخ.

ونسي جيروم أن وجه أمه كان يشبه وجه الحصان.. قال تريفور ببرود من ورائه:

- وللفستان كذلك تأثيره.

ضحك جيروم بإعجاب:

- اجل.. اجل.. بالطبع. فالفستان مذهل. أنت تعرفين حقاً كيف تختارين ثيابك يا مائي.

- لم أختر هذا الفستان، بل السيد ستار من اختاره.

فقال الوصي بسرعة:

- لكنه أعجبك أيضاً.

- اجل بالطبع.

ثم قدّمت له معطفها ليلقيه حول كتفيها.. وعندما وضعه تريفور شدّ ذراعيه حولها من الخلف وقبل طرف أذنها، وهمس بصوت غير مألوف لها، فيه حنان:

- تبدين حلوة يا حبيبتي.

علمت عندها أن التوتر بينهما زال، فابتسمت له مجدداً وخرجوا إلى السيارة المنتظرة.

كانت هذه هي المرة الأولى التي تذهب فيها مائي إلى المسرح، وكذلك جيروم على ما يبدو، فراح تريفور يقص عليها تاريخ ذلك المسرح مسمياً لها أسماء بعض المسرحيات التاريخية التي سبق أن عرضت فيه.

www.liilas.com

عندما رأت عظمة المسرح بألوانه الحمراء والذهبية. دهشت لكنها أسندت نفسها إلى حاجز مقصورتهم، تتابع بشغف شرح وصيها. ثم شاهدت عندما خفتت الأضواء وجهاً مألوفاً تجلس صاحبته في الصف الرابع من المقاعد السفلى.. وهو للبنا مايسون التي كانت تتحدث بشكل ودود مع رجل، يدير ظهره إلى ماثي.

قفز قلبها وهي تعتقده جيري. ثم، حين أدار رأسه، لاحظت من خلال الضوء الخافت أنه غريب.

مع ذلك، بقيت خلال العرض تفكر فيه، لكنها فيما بعد نسيته وغرقت في مشاهدة المسرحية.

والذي حدث أنها ما عادت من التحليق في فضاء التاريخ إلا بعد أن أسدل الستار وقال لها وصيها:

- هل استمتعت؟

- إنها رائعة!

وقال جيروم:

- أظنني معجب بكل هذه النغمات التي كان الممثلون ينهون بها كلامهم.

- أتودين الخروج إلى المقصف ماثي؟

لكن ماثي كانت قد لاحظت أن لبنا مايسون باقية في مقعدها فقالت:

- لا.. حتى الفصل التالي على ما أظن.

وقفت في نهاية الفصل الثاني السيدة مايسون تشق طريقها ببطء نحو المخرج، تتحدث إلى رفيقها الذي عرفته ماثي فهو موسيقي شهير. فاستدارت إلى جيروم:

- فلنذهب أنسمح؟

لكن وصيها صمم على مرافقتهما، وكان عليها جعل الحديث متساوياً أثناء تجوال عينيها بحثاً عن السيدة مايسون، وما أن لمحت فستانها الأحمر حتى حيا أحدهم وصيها وتشاركا بالحديث.

سارعت ماثي للتحرك مبتعدة عنه، وكأنها تتوق إلى بعض المرطبات. فجأة شاهدت السيدة مايسون أمامها تقف غير بعيدة عنها، تنتظر مرافقها الذي على ما يبدو ذهب ليحضر لها شيئاً من المقصف... فقالت ماثي:

- جيروم.. لقد شاهدت لتوي شخصاً أود التحدث إليه. سأعود بعد لحظات.

- حسناً.. ماذا أحضر لك؟

- أي شيء بارد. ليموناضة أو عصير.. لا يهم.

واخترقت الجموع حتى وصلت أخيراً إلى حيث تقف لبنا.

- مرحباً سيدة مايسون!

- يا طفلتي العزيزة.. كم تبدين خلابة رائعة! وكم شببت في أسابيع قليلة.

- اوه.. لا المسألة كل المسألة تتعلق بالفستان وبالقرطين.

- اوه.. إن ملابسك جميعها جذابة. وأنت تبدين فيها متمتعة بحياتك.

- اوه.. هذا صحيح.. إنها مسرحية جميلة، أليس كذلك؟ كيف حال جيري؟

- جيد جداً.. ومشغول جداً، بالطبع.

- إنه هنا أليس كذلك؟ أعني في المدينة.

www.liilas.com

- اوه.. بالطبع.

- قولي له إنني سألت عنه، وأرجوك ذكريه بأنه وعدني باصطحابي لرؤية أحد نواديه في يوم ما.

- هل وعدك بهذا؟ إن هذا ممل يا عزيزتي، توقعت منه اصطحابك إلى مكان فيه تسلية.

- اوه.. لا.. سأحب أن أذهب معه.. أتذيك رقم هاتفنا؟

- حسناً.. أظنه مسجلاً في الدفتر.

- أجل أظن هذا تحت اسم السيد ستار بالطبع. يجب أن أذهب الآن.

- سررت برؤيتك حبيبتي.

وقبلت أصابعها وأرسلت القبلة إلى مائي بمحبة.

تسللت مائي ثانية لتنضم إلى جيروم الذي بدا وكأنه يتساءل ماذا سيفعل بكوبين من العصير وطبق من السندويشات.

- اوه جيروم، ما أروعها!

تمتمت ألا يلاحظ وصيها، الذي انضم إليهما بعد وقت قصير، تضرّج وجنتيها وتألق عينيها، لكنه وإن لاحظها فسيعزو هذا التضرج والتألق إلى سعادتها النابعة من مشاهدة مسرحية للمرة الأولى.

في اليومين التاليين، توقعت منشوقة مخابرة من جيري، أو حتى رسالة، فتجنبت الخروج من المنزل. وقد تلذرعت مرة بصداع. لكنها أحست بوخز ضمير وهي تدعي كذباً ما ليس بها.

ومع ذلك لم تصل المكالمة.

كان لديها في الأمسية الثالثة ارتباط مؤكد مع جيروم، لم

تتمكن من الرفض. كما أن كبريائها ثارت ضد فكرة انتظار مكالمة من رجل ليس مهتماً بها على ما يبدو.

فكان أن خرجت مع جيروم، وتمتعت بسهرتها. لكنها سارعت تسأل جاكسون حين عادت:

- هل تلقيت اتصالاً هاتفياً جاكسون؟

- لا.. آنسة مائي... إنه اتصال واحد رد عليه السيد ستار.

- هكذا إذن.

وتساءلت حائرة ما إذا كان لديها الجرأة على أن تسأله. وعرفت حين رفع رأسه مبتسماً، وعيناه باردتان أن الجرأة لن تواتيها. فأخبرته عندها عما جرى معها في تلك الأمسية، فأبدى الاهتمام الساحر بها، لكن حين قبلته قبلة المساء واتجهت نحو الدرج التفتت لتقول:

- ألم تصلني مكالمات هاتفية؟

- لا.. أكنت تتوقعين مكالمة؟

- لا..

واتجهت إلى غرفتها.

بعد هذا، فكرت في أنه من الأجدى عدم التفكير في جيري، فعلى كل الأحوال، قد يكون هناك فتاة أخرى يهتم بها، وفرر من أجلها التخلي عن معارفه.

منعت مائي نفسها عن التفكير فيه فراحت تخرج كثيراً مع جيروم، إنها تتمتع بحياتها هنا. ودهشت حين اكتشفت السرعة التي تمضي فيها الأسابيع، فهي قريباً ستبدأ بالاستعداد لشراء هدايا عيد الميلاد.

www.liilas.com

كان تريفور ستار سخي اليد معها، يعطيها الكثير من المال، فتسنى لها بذلك التبضع وحدها.

ومع ذلك ستبقى دائماً دافئة القلب، بسيطة وساذجة.. لكن تريفور كان يريد خلق سيدة شابة، فتاة، لا إبقاءها طفلة جميلة.

قبل أسبوعين من الميلاد، كانت تقف أمام منضدة مكتظة بالمعروضات في أحد المخازن، تتأمل هديتين محتملتين.. لكن وبينما هي ترفع رأسها فجأة وجدت جيري أمامها يقف على بعد بضع ياردات منها ينظر إليها باهتمام.

ـ جيري! تسعدني رؤيتك بعد هذه المدة.

ـ وتسعدني رؤيتك أيضاً ماثي. كنت أتساءل عما إذا كانت من أراها أنت أم لا.

ـ لماذا؟ هل تغيرت كثيراً؟

ـ نعم.. ولا. لقد أصبحت أنيقة جداً. لكن ما إن فتحت عينيك ونظرت إلي حتى عرفت أنك ماثي التي أعرفها.

لم تعد قادرة على الانتظار حتى يدعوها فقالت:

ـ لِمَ لا نذهب إلى مكان نتناول فيه القهوة ونتحدث؟

ظهر متردداً قبل أن يجيب:

ـ اجل.. هيا بنا. هل انتهيت من التسوق؟

ـ اوه.. لا شيء مهم. سأتركه الآن..

تحدثا وهما في التاكسي قليلاً.. لكن ما إن جلسا في مواجهة بعضهما بعضاً حتى قالت ماثي:

ـ هل أخبرتك أمك عن التقائي بها في المسرح.

ـ أجل. وقالت إنك كنت تبدين أنيقة كنساء البلاط

الفرنسي، في فستان مطرز مذهب، وفرطين رائعين.

ـ اوه.. صحيح.. إنه فستان جميل.

ـ أتمضين وقتاً طيباً هنا ماثي؟

ـ أجل.. إنه وقت رائع. لكن أفكر أحياناً في أن عليّ إيجاد شيء نافع أقوم به. فلا أريد أن أسعى فقط وراء المسرح.

ضحك جيري:

ـ أستطيع القول إنك الآن تتمتعين بإجازة طويلة.

ـ لكن يا جيري، لقد طالت الإجازة كثيراً. وأظن أن الوقت حان لأرى الوجه الآخر من الحياة... أما وعدتني مرة باصطحابي إلى أحد النوادي لأتعرف إلى نوع عملك.

أحضرت الساقية لهما القهوة، فقال محاولاً تغيير الموضوع:

ـ تبدو القهوة جيدة.. أليس كذلك؟

ـ جيري.. لماذا تتجنب إجابتي؟

ـ وهل سألتني شيئاً عزيزتي؟

ـ ليس بالضبط لكنني كنت أتحدث عن عملك. ووعدك.

مرر يده على شعره وضحك.

ـ ماثي، يا عزيزتي... ألا ترين أن من الأفضل التخلي عن الفكرة؟

ـ لا.. لا أظن هذا.. ولماذا؟ إلا إذا كان الأمر سيضجرك.

ـ لا.. لن يضجرني.. لكن وصيك لن يرضى.

ـ لكنه لن يعرف! على الأقل...

ـ عزيزتي.. أنا لا أحب وصيك.. لكن له عليك

www.liilas.com

حقوق... ولا أحسبنا قد نتمتع بالقيام بشيء ما نعلم أنه سيمنعه لو استطاع.

- لا.. لا.. بكل تأكيد. لم أعن هذا.. ما فكرت قبل أن أتكلم..

وضع جيري يده فوق يدها عبر الطاولة:

- يا عزيزتي تفكيرك سوي. تسرني رغبتك هذه.. لكنه لن يأذن لك بمرافقتي أبداً.

- لكنه قد يأذن لي فعلى ما أعتقد أنه سيتركني أفعل ما أشاء.

- لا يا عزيزتي صدقيني. فهو مصمم على منعنا من اللقاء.

خفق قلب مائي:

- ومن أين لك هذه الثقة؟ ألهذا لم تتصل بي أو تراسلني؟

- أجل.

- أنت تبالغ يا جيري حقاً.. فما الذي جعلك تغير رأيك؟ ومتى بدأت تنظر إلى معارضته بجدية؟

- حين جئت مودعاً قبل سفري.

نظرت إليه مشدوهة:

- يومذاك؟ آه يا جيري كانت غلطة سخيفة ألم تعلم أنني يومذاك كنت في المنزل؟ كانت هذه غلطة من فتاة يلهاء.

نظر إليها جيري بإشفاق.. ثم ابتسم:

- لا يا عزيزتي... لم تكن فتاة يلهاء التي أخطأت في إعطائي المعلومات عن غيابك. بل كان الوصي.. مع أننا كنا معاً نراك في الحديقة عبر النافذة.

٧ - قصر الرغبة

لم تستطع مائي النطق إلا همساً:

- جيري.. ! أهذا.. صحيح؟

أحست رغم معطف الفرو ورغم الجو الدافيء بالبرد.

- آسف يا عزيزتي.. إنه صحيح كل الصحة، لكن لا تحملي الأمر على محمل الجد، ربما كان تصرفه مشيناً غير لطيف، لكنه أوضح لي أنه يريد ابتعادي.

- لكن لماذا؟ إن هذا مما لا للمنطق! يا إلهي كيف يخدعني؟ لماذا تركني أعتقد أن الخادمة أخطأت؟ لماذا لم يطلب مني بصراحة عدم ملاقاتك؟ لماذا لم يبحث الأمر معي بلباقة وصراحة؟

- حسناً.. أولاً.. هذه ليست طريقته في معالجة الأمور... ثانياً.. هو يعلم أن منعك عني يزيدك تصميماً. لقد قالت لي تلك الخادم: «أظن الآنسة بروكتر في الخارج.. سأسأل السيد ستار» ولهذا حسبته أخبرك بما حصل.

صاحت بانزعاج:

- أوه جيري.. هذه مراوغة!

- لكنها أنقذته من عصبانك.

وضحك.. لكنها قالت متجهمة:

www.liilas.com

- الأمر ليس مضحكاً، كيف يخدعني. أنا أحبه نعم لكنني أرفض أن يعاملني على هذا النحو. أرجوك أخبرني عما جرى بالضبط.

هز كتفيه وعاد إلى الابتسام:

- ما حدث شيئاً يذكر. كانت المقابلة قصيرة ومحددة. أدخلتني الفتاة إليه فقال لي بأدب «آسف، لكن مائي ليست هنا» وفي تلك اللحظة، برزت من طرف بعيد في الحديقة.. فقلت: «هذا ما أراه» لكنه لم يرف له جفن وهو يجيب «مع ذلك فأنا مصر على أنها ليست موجودة، خاصة بالنسبة لك» فضبطت أعصابي وشرحت له أنني قدمت مودعاً لأنني مسافر...

- اوه جيري.. ليتك قرعت على زجاج النافذة!

- لم أفكر في هذا، ولو فكرت، لما استطعت أن أفعل... كنت فتاة صغيرة محجوبة، وهو مصمم على اختيار أصدقائك...

- جيري.. ألم تسأله عن سبب حقده عليك هكذا؟

- طبعاً فعلت، فرد بنعومة إنه لا يحقد عليّ أبداً وإنه لا يملك شيئاً ضدي، لكنه يفضل اختيار أصدقائك، لأنك ما زلت صغيرة سريعة العطب. وهذا بالطبع، ما أنت عليه، يا حبيبتي.

- لكنني لست طفلة إلى هذه الدرجة.

- لا.. فقد شبت كثيراً في الشهر المنصرم.. لكن، الله يعلم، أن وصيك لا يطاق، وهذا لا ينفي حقه في الطلب مني الابتعاد عنك فسأكون وغداً، نظراً لعمرك، إن أنشأت معك علاقة بالسر. فكرت كثيراً في الالتفاف حوله، لكنني لم أستطع. وها أن كل شيء يتلاشى في الوقت الحاضر، حتى

باتت أمامي أمنية واحدة وهي بقاؤك معجبة بي، حتى يصبح في يدك زمام أمرك.

- اوه جيري.. سأبقى دائماً معجبة بك، وراغبة في صداقتك.

- شكراً لك عزيزتي، فهذا هو شعوري أيضاً. لكن لا تفكري في بطلاً، انظري إلى الأمور ببساطة قدر المستطاع، وتذكري أن سن السابعة عشرة سناً يافعة.. وأمامك وقت طويل.

- اجل.. أتعرف يا جيري، هو لا يمانع في خروجي مع الآخرين على سبيل المثال جيروم فالكون... فلماذا يخصك بالمنع؟

- لست أدري..

ثم غيّر رأيه سائلاً:

- ألا تعرفين حقاً؟

- لا.. بالطبع لا. أتعرف أنت؟

- اجل.. أخالني أعرف.. إنه يعرف أننا معجبان ببعضنا بعضاً منذ البداية، ومنعني عنك لأنك فعلاً معجبة بي.

- لكن هذا سخيف!

- لا.. أبداً.. بل هو ذكاء.. فأنا لا أنسجم وخططه، ولن يجعلني أنسجم معها. وأنا أعتقد أنه من وجهة نظره على حق.

- ماذا تعني بالانسجام مع خططه تحديداً؟

- لست أدري ما هي خططه بالتحديد، لكن أشك في أنه يعد شيئاً ما لمستقبلك وربما لصالحك، لكن تذكري أن هذا قد لا يكون ضرورياً لك. فكوني حذرة، إذ لا أعرف مدى

www.liilas.com

استعداده لفرض آرائه ورغباته...

- ثمة أمر آخر أود معرفته...

- نعم مائي؟

- بعد أن استلمت رسالة من والدتك، هل حاولت الاتصال بي؟

- اجل.. اتصلت في إحدى الأمسيات لكنك كنت خارجاً.

- وهو من أجاب؟

- اجل.

- وماذا قال لك؟

- في الحقيقة عزيزتي، لم أترك له المجال ليقول شيء، فما أن سمعت صوته حتى أقفلت الخط. مع أنه لم يمنعني من الاتصال هاتفياً، إلا أنني عرفت بأنني خرقت روح الاتفاق بيننا.

- أتظنه لم يعرف أنك أنت؟

- ربما خمّن هذا.

- اوه.. الحمد لله!

وترقرقت الدموع في عينيها. فبدا القلق على جيري:

- عزيزتي.. أخائفة أنت منه؟

- لا..! لكنني ظننت للحظات أنه كذب عليّ مجدداً.

- لا تكدري نفسك مائي.

- لا.. لن أكدرها. لا بأس الآن.

نظر إليها بعطف:

- اسمعي عزيزتي، لا تحيطي تريفور ستار بهالة من القدسية لأنك كلما اكتشفت شيئاً سيئاً عنه ستتضعضعين متألمة. لذا تقبلي واقع أنه رغم سحره، هو رجل مصمم لا رحمة في

قلبه، خال من الضمير.. تقولين إنك متعلقة به، لا بأس في هذا، فالمرء لا يحب أو يكره أحداً لفضائله أو عيوبه. ولا سبب يمنعك من التعلق به. خاصة وهو متعلق بك هذا التعلق كله... لكن حاولي ألا ترسمي في مخيلتك تريفور ستار لا وجود له.

رفعت بصرها إليه، متذكرة فجأة مرور الوقت:

- يجب أن أذهب الآن.

- حسن جداً... سررت برؤيتك مائي، وسروري أعظم لأننا وضحنا الأمور في ما بيننا.

- وأنا مسرورة أيضاً يا جيري. لا تقلق عليّ، ولا تظنني سترعجة، فالمسألة كل المسألة أنني لم أتوقع ما قلته.

- شكراً مائي.. كان توضيح الأمر حسناً لنا.

عندما خرجا إلى الشارع استأجر لها تكسياً ثم ودعها طالباً منها الاعتناء بنفسها، واعداً إياها بأن يتقابلا حين العودة إلى لندن ستون. أدخلها إلى السيارة، ثم أغلق الباب وأمال رأسه نحو النافذة ليقول:

- هل من الحكمة إيقاظ الكلاب النائمة؟

- لا، فالكلاب ليست نائمة بما فيه الكفاية.. وداعاً عزيزي جيري وشكراً لك على كل شيء.

فارتد ملوحاً لها، وانطلقت السيارة بها.

بينما كانت السيارة تنسلل من الشوارع إلى منزل الغابة، راحت تفكر في وضعها.. فوجدت أنها لن تستطيع العيش بهذا الوضع. لن تعيش تاركة له حرية التلاعب بخيوط حياتها، مسيّراً إياها كما يريد.

www.liilas.com

حين وصلت إلى المنزل، أدركت أنها لن تستطيع مفاتحته فوراً بالموضوع... فستُقام هذا المساء حفلة عشاء صغيرة نسبت أمرها... والوقت الذي كان أمامها لا يكاد يكفي لتغير ملابسها.

حين انتهت، وجدته في غرفة الجلوس. رمى الجريدة من يده ليسألها:

- هل كان يوم تبضعك ناجحاً؟

- اجل.. شكراً لك.

- هذا ما اعتقدته، فأنت لم تحضري لتناول الشاي في موعده عصراً، كما كنت أتوقع.

- صحيح.. كنت سأعود باكراً، لولا التقائي بجيري مايسون الذي تناولت معه القهوة.

رد ببرود كامل:

- صحيح؟

- التقينا صدفة في مخزن مكتظ، واقترحت عليه الذهاب إلى مكان نتحدث فيه.

- عزيزتي مائي! أنت من اقترحت عليه؟

- نعم، فقد انقطعت أخباره منذ زمن طويل. وأحببت أن أعرف السبب.

- وهل وجدت السبب؟

ردت ببطء وببرود ما تصورت أن بإمكانها إظهاره:

- اجل.. عرفت السبب.

في تلك اللحظة فتح جاكسون الباب، وأعلن وصول أول الضيوف.

كانت حفلة ساحرة، ككل حفلات تريفور ستار.. تحدثت مائي إلى جيروم مسرورة بشخصيته غير المعقدة، التي تجعل التعامل الاجتماعي معه متحرراً من كافة التعقيدات، وكانت تعي أن أنظار بعض المدعوين المسنين مركزة عليهما مع شيء من الاهتمام.

اكتشفت فجأة أنها كانت تفكر مما جعلها لا تنتبه لما يقول جيروم.. فسارعت تعتذر:

- اوه.. آسفة جيروم كنت أفكر في أمر آخر.

فضحك لها:

- لا بأس في هذا. أنحسين بثقل واجبات المضيفة؟

- إنها فعلاً ثقيلة.

- لا تقلقي.. حقاً.. أنت رائعة في هذه الأمور.. إن تدريبات تريفور نافعة نعم، لكنك تملكين فطرياً قدرة تجعلك تنجحين اجتماعياً.

- ربما لأنني أهتم حقاً بما إذا كان الناس يتمتعون أم لا... لا أطيق أبداً أن يخرج أحد ولديه إحساس بائس أو ملل.

- أنت طفلة لطيفة، وهذا هو سرك على ما أعتقد، وأراهن على أنك قادرة على إنجاح كل شيء... أعني.. إن لك قدرة هائلة على أن تكوني مضيفة عظيمة.

- اعلم أنني قد أحب ذلك جداً.

ثم استدارت لتتحدث مع ضيف آخر... لكنها ما كانت سعيدة لانشغالها الدائم بواجباتها، وبتحدثها مع الناس.. ووجدت نفسها تتجنب النظر إلى وصيها، أكثر مما هو

www.liilas.com

ضروري..

هل أحس بأنها، قبل وصول أول ضيوفهما، قد رمت تحدياً كبيراً في وجهه؟ وإذا كان هذا صحيحاً فهل سيحمله على محمل الجد؟ أم يعتقد أن لا أهمية للأمر كله؟

بينما كانت ماثي تتحدث وتصغي، وتبتسم، كانت مندفعة دون انتباه إلى اتباع أفكارها بين الحين والآخر. إنها تؤمن بأن المرء لا يستطيع أن يحافظ على حاجز بينه وبين من يحبه.

قد تتاح لها فرصة محادثته بعد خروج الجميع. وعندها ستكون هادئة غير غاضبة، ولن تنتقده بقسوة. بل ستشير ببرود إلى أنها تعرف كل ما فعله مع جيري، وأن تصرفه خسيس.

ارتعدت قليلاً وهي تطلق لفظة «خسيس» على وصيها، لكنها قررت أن هناك كلمة ألطف من هذه ستجدها لاحقاً.

لكن حتى بعد أن رحل الضيوف لم تجد هذه الفرصة. فقد سمعت جيروم يقول لوصيها بعصبية:

ـ هل أبقى قليلاً لإجراء حديث قصير؟ أريد التحدث إليك عن أمر ما.

ـ طبعاً..

والتفت إلى ماثي:

ـ لن أتركك مستيقظة.. تصبحين على خير يا عزيزتي.

ابتسمت لجيروم وقالت:

ـ تصبحان على خير.

وبينما هي تصعد الدرج، أحست بأنها تعمدت تجنب تقبيل وصيها قبلة المساء متذرعة بوجود جيروم.. وما صدمها أكثر أنها تعمدت إيجاد ذريعة لهذا.

خلعت فستانها المطرز في غرفتها وارتدت روباً أحمر، فأبرز اللون دفء وثراء لونها. كانت تشعر وهي تزرره بدفء الصوف الناعم على جسدها.

تساءلت لحظة عما إذا بالغت في أهمية ما قد يكون تسرعاً وتهوراً من وصيها.. لكنها تعلم علم اليقين أنه لا يتصرف تحت تأثير اندفاع موتور. فكل ما يفعله مدروس كل الدراسة لغرض ما.

لكن لماذا قرر الاحتفاظ بها أصلاً.. فليس دافعه لطفاً أو شفقة على يتيمة.. وليس لأن الناس يعتقدون أن هذا واجب عليه. فهو لا يهتم أبداً برأي أحد. ومع ذلك كان مصمماً على الاحتفاظ بها. ترى أقرّر ذلك لأنه تعلق بها؟ نعم هذا هو السبب، إذ لا شيء قد يفسر لطفه وتسامحه معها غير ذلك.

إن إيجاد الأعذار لأصعب عليها من الأمر نفسه.

فلماذا لا تترك الأمر عند الافتراض بأنه مجبر على تحمل مسؤوليتها بناء على وصية كارولين، ويبدو أنه بعدما نفذ الوصية أحب ما قام به أكثر مما توقع.

أحست بما يشبه الحنين، فتساءلت ماثي ما إذا كان قد كره كما كرهت، خلافهما المتعلق بجيري. ذاك الخلاف الذي حدث منذ مدة، وهل يخشى أن يتكرر هذا الخلاف لذا تجنبه بأي ثمن.

لكنها بعد إمعان في التفكير، وجدت أن ليس هناك ما يخشاه تريفور فعلاً، لكنها مهما كان سنحاتحه بالموضوع غداً.

نهضت ماثي من حيث كانت تجلس ثم دنت من الباب فأرهفت السمع فإذا بأصوات مخنوقة تتناهى إليها من الردهة في

www.liilas.com

الأسفل. ثم بصوت الباب الخارجي يقفل وهذا يعني أن جيروم قد رحل. ووصيها على وشك الصعود إلى غرفته، أو على وشك القعود للمطالعة.

إن قصد غرفته تؤجل النقاش حتى الغد، أما إذا بقي في الأسفل، فستذهب إليه.

أنصتت دقائق لم تسمع خلالها سوى ضربات قلبها التي دوت بشكل غير طبيعي... ما عادت تسمع صوتاً من الأسفل، إذن لقد قرر عدم الصعود إلى النوم.

فتحت الباب، تبتلع ريقها بصعوبة، ثم نزلت دون أن تصدر صوتاً على الدرجات.

كان جالساً قرب النار، لكنه لم يكن يقرأ كما افترضت. بل كان، مثلها غارقاً في أفكاره. ارتجف قلبها وهي تشعر بأن أفكاره سوداء كئيبة.

ما إن خطت إلى الغرفة حتى رفع رأسه دهشاً:

- أهلاً عزيزتي.. أتريدين التحدث إلي؟

- أجل.. ولا أظنك دهشاً؟

فكّر مبتسماً ابتسامة باردة ثم قال متسامحاً:

- لا.. لا أظنني دهشاً، تعالي واجلسي قربي.

مد يده ومرّر لها كرسياً، لكنها تجاهلته وجلست على البساط تحت قدميه. اتسعت عيناه وهو ينظر إلى شعرها الأسود قائلاً:

- حسناً.. وأنا أود مكالمتك أيضاً.. فمن يبدأ؟

- لقد بدأت أنا الكلام!

بدت عليه الدهشة:

- حقاً؟

- أجل.. قبل وصول الضيوف.

- يا عزيزتي.. نسيت.. يا لغبائي!

صاحت، وقد أحست بحرارة الغضب فجأة من برودته:

- لا لم تنسه، فأنت تعرف يقيناً عما سأتكلم.. لكنك فضّلت التجاهل بطريقة ناعمة. وظننت هذا ذكاء! وهذه على ما يبدو طريقتك في التعامل معي. أنت تبتعد عن الشجار مع طفلة ليسير كل شيء على ما يرام، تدبر الأمور من وراء ظهرها، وتجعل كل شيء يسير كما تشتهي! هذا تصرف كريه! لماذا لست صريحاً معي؟ أنت تهينني بتصرفك هذا. وهذا ما يقلل من قيمة المحبة التي بيننا. الناس لا يتعاملون بهذه الطريقة حين يحاورون متبادلين الاحترام.

غلب عليها التأثر فجأة، فاضت عواطفها، وأجهشت فجأة بالبكاء، لكن بدلاً من أن تنفر منه، وضعت رأسها على ركبته، وراحت تنتحب كطفلة. فوضع يده على رأسها:

- يا طفلتي العزيزة!

انحنى إلى الأمام واحتواها بين ذراعيه قائلاً:

- اصمتي.. لا تبكي هكذا! لا شيء يستحق بكاءك!

شهقت مائي، مع أنها أحست بالراحة بين ذراعيه:

- بل يستحق.

- حسناً.. خذي الأمور بهدوء يا حبيبتي، وإلا لن تستطيعي شرح الأمر لي. وأنا الآن أجهل قصدك.

توقف البكاء فجأة:

- أتعني.. أتعني أنك لا تعرف عما أتكلم؟

www.liilas.com

فابتسم لامساً خدها بيده:

- لا أعلم أبداً عما تتكلمين.

- أنا أتكلم عن جيري وعن الأمر الذي أصدرته طالباً منه الابتعاد عني، وعن جعلي أعتقد أنه تخلى عني..

بدت الدهشة الحقيقية عليه وهو يقاطعها:

- الله! أهذا الكلام وهذه الدموع كلها من أجل مايسون الشاب؟

- بل هي بسبب الطريقة المقرفة التي تصرفت بها معه.

نظر إليها بسخرية حنون:

- لقد سبب اكتشافك غلطتي هذه الدموع!!! يا طفلتي العزيزة، ما هذه اللحظة الغريبة لإثارة موضوع كهذا. ظننتك تريدين الكلام عن أمر مهم وملحّ أكثر، أمر كالذي أردت مفاتحتك به على الأقل.

- لا أفهمك.

- ألم تفهمي؟ هل عرفت لماذا أراد فالكون التحدث إلي؟

- جيروم؟ لا.. ماذا يريد؟

ضحك تريفور:

- أظنك أحياناً ساذجة مائي... لقد بقي جيروم هنا ليطلب مني يدك. وليتوضح ما إذا كنت أعتبرك صغيرة على الزواج.

تسمّرت مائي فجأة بين ذراعيه.. وسألت ببطء:

- وماذا.. ماذا قلت له؟

- قلت إنني لا أعتبرك صغيرة جداً، وان لا شيء يسعدني أكثر من رؤيتك متزوجة به.

- لكن هذا غير صحيح..

- بالطبع هو صحيح!

- وأنا التي ظننتك لا تريد أن أبتعد عنك..

- حبيبتي.. لا أريد أن تبتعدي عني، ولذا أنا في غاية الشوق حتى تتزوجي من رجل يعيش في الجوار.

- أتحب أن أعيش في قصر غراي؟

ساد صمت غريب قصير. ثم قال بهدوء:

- ليس بالضرورة.. بما أن لا أحد منكما مهتم بالقصر، فقد فكرت في الوصول إلى تسوية، فتحصلان أنتما على الديان ستون وأسترجع أنا ما رغبت فيه دائماً، أسترجع قصر غراي.

• • •

www.liilas.com

٨ ـ رجل لا يلين

لم تصب مائي من قبل بالإغماء، لكنها اعتقدت أنها فقدت الوعي لحظات بعد توقف وصيها عن الكلام. لقد أظلمت الغرفة فجأة أمام عينيها وما عادت تشعر بشيء إلا بخفقات قلبها.

أحست وكأن الأرض مادت بها وانفتحت تحت قدميها، كاشفة عن هوة سحيقة ما اعتقدت أنها موجودة يوماً.

ألم يلاحظ أنه ألقى الأمر كله عارياً أمام نظراتها المذعورة؟ أم ظن، كما قال منذ دقائق، إنها غبية لا ترى إلى أين تقود هذه الأمور؟

فغرضه من تزويجها بجيروم قصر غراي ليس إلا قصر العائلة الذي تاق دوماً إلى استرجاعه.

لم يكن ليعلم بالطبع أن جيروم قد يقع في حبها.. لكنه جعلها امرأة ساحرة المظهر، ثم رماها في طريق جيروم.. الآن فهمت لماذا رفض جيري.

وسمعت وصيها يقول:

ـ مائي، يا طفلتي.. لماذا الصمت؟

فهمست:

ـ كنت.. أفكر. فأنا لم أفكر من قبل في الزواج من

جيروم.

ـ لكن يا طفلتي الحبيبة، لقد شجعته بكل وضوح.

ـ اوه.. لا! لا.. أهذا هو الانطباع الذي أعطيته؟

ـ بكل تأكيد. لقد شعرت بأنك تسعين إليه.

أحست مائي بالرعب. ثم أدركت فجأة أنها لم تكن تصغي لرأيه غير المهتم.. وأحست بالبرد وهي تراه يتعمد تضليلها. فتمتمت:

ـ يجب.. أن أتحدث إلى جيروم.

ـ طبعاً.. وأظن أن لديك ما تقولينه له.

ـ ربما لا أريده زوجاً.

ـ هذا الأمر وقف عليك تماماً يا عزيزتي.

وقفت مائي على ركبتيها فوق البساط ولفت ذراعيها حوله، وقالت متوسلة:

ـ أنت تريد أن أختار ما يجعلني سعيدة حقاً؟

ـ بكل تأكيد عزيزتي! لكن أعطيني حق تقديم نصيحة لك تتعلق بسعادتك.

ـ اجل.. طبعاً.. طبعاً. أعرف هذا.. لكن، إذا لم أرغب حقاً بالزواج من جيروم، فهل ستجبرني لأنك تريد استعادة قصر غراي والسكن فيه؟

أحست به يتصلب، لكنه قال ببرود:

ـ يا طفلتي الحبيبة، لا أستطيع إجبارك على شيء، حتى ولو كنت أتمناه. أنت حرة تماماً في قبول جيروم، أو تأخير الرد حتى تصبحي أكبر سناً، وأكثر حكمة.

وجدت نفسها تتساءل عما إذا عرف أنه قد تمادى كثيراً، أم

www.liilas.com

أنه فعلاً يعبر عن رأي صادق. لكن معالم الوضع الحادة بدأت تخف وتضمحل.. أكانت تفكر فعلياً في طريقة درامية؟ وهل حكمت على وصيها الحبيب حكماً جائراً ظالماً؟

تنهدت وقالت بطفولية:

- لا أريد تركك والزواج من أي كان.

فضحك وقبلها:

- لا بأس حبيبتي... لا تفكري في الموضوع الليلة.. لكن تذكري، إن تزوجت جيروم تبقين قربي، وعندها سأراك يومياً وستصبحين السيدة فالكون، زوجة المحافظ، وستملئين المركز بسحرك... والآن هيا إلى الفراش.

تذكرت فجأة أمراً، فاستدارت وإحدى ذراعيها حولها:

- ثمة أمر آخر فقط يتعلق بجيري. سأشعر بالذنب إن لم أفاتحك به.

بدا عليه المرح:

- حسناً.. ماذا تريدين القول؟

- حين زارنا لتوديعي، هل قابلته؟

- أجل.

- وقلت له إنني غير موجودة؟

- اجل.

- لكنني كنت موجودة.. وكانت تلك كذبة.

رفع حاجبيه وقال بخشونة:

- لم تكن كذبة تثقل ضميري، على كل الأحوال حين عرف أنك قربة ويمكن استدعاؤك، فهم بنفسه أن الأمر لياقة اجتماعية القصد منها أن أقول بأنني أفضل أن يكون لك أصدقاء من نوع

آخر.

- لكن لماذا؟ تصرفك هذا غير منصف وغير مبرر أيضاً.

- مائي.. لقد مررنا بهذا من قبل، وأنا، لست مستعداً لخوضه ثانية خاصة في مثل هذا الوقت من الليل. وأظنك تعترفين أنني لست وصياً قاسياً.. فأنا لا أطلب منك سوى القليل أما الكثير فمتروك لك..

- اوه... صحيح.. حقاً! ولا تحسبني ناكرة جميلك ولطفك.

- حسن جداً.. أنا لا أريد التأكيد على هذه النقطة، فمن دواعي سعادتي أن أدللك إلى حد معين... لكن في حالات محددة، حين أطلب الطاعة...

- طاعة من غير سؤال؟

- نعم طاعة عمياء، ولك في المقابل الدلال.

- لكنك لو قلت لي الحقيقة بنفسها لما شعرت بهذا الإجحاف؟

- إذن، أخشى أنني سأسلك سبلاً ملتوية في كل شيء إذا كان هذا يعني علاقات هادئة مسالمة بيني وبين فتاة مشاكسة. تعرفين ما كنت ستفعلين لو أخبرتك بما حدث مع جيري؟

- كنت سأغضب وسأحاول إقناعك بتغيير رأيك.

- بالضبط، إلا أنني لا أرى سبباً يدفعني إلى عرض نفسي أمام انتقاداتك لذا فضلت أن أسعى إلى سعادتك مستخدماً طريقتي. ولا أحسبني رأيتك حزينة في الأشهر المنصرمة.

قالت بنعومة:

- مال وفير.. شروط جيدة.. دون أسئلة.

www.liilas.com

نظر إليها بحدة:

- أهذا نوع من التأنيب؟

- لا.

- إذن، هل لنا أن نعتبر موضوع جيري مقفلاً؟

أخفضت نظرها وقالت بصوت خفيض:

- ثمة ما تتجاهله وهو أنني متعلقة بجيري.. وأظنه متعلق بي.

سمعته يتنفس بحدة وانزعاج، وقال بخشونة:

- نحن نعود إلى نقطة الصفر يا مائي ولست على استعداد للف والدوران في حلقة مفرغة.. إن موضوع تعلقك بشاب، لا تعرفين سوى القليل عنه ليس بذي أهمية، في هذه اللحظات. لكن إن أردت تحليل مشاعرك تحت المجهر، فأقترح أن تحللي مشاعرك أيضاً تجاه جيروم فالكون، الذي طلب النوم بسريرك.

- لم يسألني بل سألك.

ضحك تريفور، وفرك لها شعرها فأحست بالراحة:

- حسناً، طلب مني أن آذن له بسؤالك. وهذا إجراء محترم. نظراً لسنك ومركزك. والآن اذهبي إلى النوم.. فأعتقد أنني تلقيت من التوبيخ ما يكفيني لليلة واحدة.

توجهت إلى غرفتها بسطء، فأوت إلى فراشها، لا لتنام بل لتفكر في أمور كثيرة.

ولم تكن تلك الأفكار مشاكل منفصلة عن بعضها بعضاً بالطبع.. بل هي متشابكة بطريقة مخيفة معقدة.

ثم تذكرت الطريقة التي كان ينظر إليها جيري دائماً حين تصرّ على محبة وصيها لها. لكن أنى لجيري، أو لأي شخص

آخر، أن يعرف العلاقة الوثيقة الموجودة بينها وبين تريفور الذي هو شخصية حقيقية، ومميزة.

لكن أتخدع نفسها؟ أيكون ذكاؤه غير موجود في مخططه الذي بدا بسيطاً؟ أتكون غايته وضع زمام حياتها وعواطفها بين يديه؟

أمامها العديد من الأفكار إلا أن أهمها موضوع جيروم السهل الانقياد الذي يريد مشاركتها حياته. فكرت بعض الوقت في وداعته ولطفه ووجدت أن الحياة معه ستكون سهلة مباركة، وهذا ما يناسبها.

لكنها لم تستطع أن تتصور الحياة الزوجية معه في قصر غراي أو في الديان ستون... وبذلك انقلبت أفكارها إلى الجزء الآخر من المشكلة.. هل قام وصيها بالفعل بشد الخيوط وهل هي وجيروم يستجيبان إلى مآربه؟

إن فكرة الزواج في كل الأحوال بعيدة عن تفكيرها في الوقت الحاضر... جيروم لطيف وديع وسيكون زوجاً رائعاً ربما لأية فتاة أما لها فلا.

وهذا بالضبط زبدة ما قالته له في اليوم التالي.

كان قد وصل باكراً، وحين دخلت مائي إلى غرفة الجلوس رأته يقف هناك جاداً بطريقة يشوبها بعض التفهم.

- مرحباً مائي.. هل أخبرك تريفور عن حديثنا بالأمس؟

- حسناً.. فكرت في الحضور لأراك هذا الصباح. يبدو أن الوقت مناسب للتحادث.

- اجل.. بكل تأكيد جيروم، كنت لبقاً حين تكلمت مع السيد ستار أولاً.. طالباً الإذن منه.

www.liilas.com

- حسناً.. يبدو هذا قديم الطراز قليلاً، لكنك صغيرة جداً و...

- لا أشعر بأنني صغيرة الآن. أنا شابة يا جيروم لكنني لا أريد أن أتزوج في الوقت الحالي. ربما هناك فتيات كثيرات يتزوجن عن عمر صغير أما أنا..

- لا أريد ربطك بأية طريقة ماثي، كل ما في الأمر أنني أردت أن تعرفي حقيقة مشاعري، وأن تفكري في الموضوع ملياً. فأنا أحس بالخوف كلما نظر إليك رجل آخر، وأجدني أحسب نفسي غبياً إن وقفت متفرّجاً تاركاً رجلاً آخر يتقدم منك، لا لسبب إلا لأني أنتظر أن تصبحي أنسب عمراً.

ضحكت ماثي على طريقة شرحه للأمر، وقالت:

- أفهم وجهة نظرك. أنت لطيف جداً يا جيروم. وأشعر بأنني شريرة إن لم أعطك الرد القاطع.

- يا إلهي.. لا.. لا يأس في هذا! بل أشكرك لأنك أعطيتني بعض الأمل، فقد خشيت أن تقولي إن الشاب الآخر...

- أي شاب؟

- حسناً.. كان لدي فكرة.. تريفور ظنّ أن هناك شاباً آخر.. ولا بأس في هذا ماثي، لم يذكر اسماً.. لكن...

- هل لمّح لك إلى أنني.. مهتمة بشخص آخر؟

- لا.. ليس بالضبط.. لكنه أراد أن يفهمني أنني لست الوحيد في الملعب.

- وأن عليك الإسراع لتسوية الأمر؟

- اجل.. مع أنني فكرت في الأمر مسبقاً.

- لا... بل الفكرة حشرت في دماغك.

- اوه.. توقفي عن هذا ماثي! أن يحب رجلاً امرأة ليس بالأمر الجديد، والإنسان حين يحب يرغب في الإسراع للحصول على حبيبه... فماذا دهاك عزيزتي؟

رفعت ماثي يديها تدفع شعرها إلى الوراء:

- لا شيء.. جيروم.. لا تحسبني مجنونة.. لكن هل فكرت يوماً في أن تريفور ستار يخطط لهذا الزواج؟

- يخطط له؟ يا إلهي ماثي! لا أحتاج إلى رجل آخر ليخطط لي طلب زواج.. أتعتقدين أنني لا أعرف صفات الفتاة التي سأتخذها زوجة؟ حذار من هذا الافتراض لأنني أنا من فاتحته بالأمر أولاً.

- اوه.. لا.. لا.. لا أقصد ذلك. على كل، أظنني مجنونة.

- لا أفهم.

- لا بأس في هذا جيروم.. إنها فكرة مجنونة خطرت على بالي.

- تتعلق بستار؟

لم ترد عليه فأضاف بريبة:

- أتعنين أنه كان متحمساً للفكرة؟ لقد قال إنه سيكون سعيداً بجعلك تقبلين بي.

- اجل.. أتعرف لماذا؟ لأنه يريد مني أن أقنعك بالعيش في انديان ستون حتى تترك له قصر غراي... اوه..! ما كان يجب أن أخبرك!

حدق إليها جيروم مذهولاً، دهشاً ثم قال ببطء:

www.liilas.com

- كرري ما قلته ثانية.

- اوه.. لا.. لا. مرة واحدة تكفي.

ضحكت مائي مرتجفة ثم وقفت تراقب تعابير جيروم تتغير على وجهه ببطء... فبدأت بريبة فعدم تصديق ثم عناد مستعصي، جعله يضغط على فكه بطريقة لم ترها قط. وأمسك بيديها ليقربها منه:

- انظري مائي... ليس لستار أية علاقة بهذا.. ستعيشين أينما شئت، إذا تزوجتني. في غراي أو انديان ستون، أو أي مكان في أميركا كلها. الأمر وقف على ما نقرر. ولن أقبل بأن يكون زواجي صفقة.

- لا بأس في هذا جيروم.. لا بأس.

كان ما يزال ينظر إليها وفي نظرته شك. فابتسمت له وكررت:

- لا بأس أبداً جيروم... لقد استحوذت علي فكرة مجنونة بعض الوقت. لكنني أدركت الآن أنها فكرة سخيفة. لا تفكر فيها أبداً، وأعود فأشكرك لطلبك يدي، وأنا أحس حقاً بالإطراء.. والآن أرجوك لا تعتبر نفسك مغرماً بأية طريقة...

- اوه.. ولكنني مغرم.

- لا.. أرجوك، أنا لن أطلب وقتاً محدداً للتفكير، أتركك خلاله معلقاً بل أريد أن أتمهل وأن أعيش بعض الوقت قبل الارتباط بأي كان، أريدني حرة كما أريدك أنت حراً. وهذه الطريقة العادلة الوحيدة.

كانت مائي في الأيام القليلة التالية تتأرجح بين التفكير في أنها أساءت الحكم على وصيها، وبين الوثوق بأن ريبتها في

محلها. فوصيها يتعمّد زجّها إلى الزواج من جيروم في سبيل مصلحته. وها كل شيء يسير تقريباً كما يريد. فلقد خرج جيري بطريقة ما من حياتها وأصبح جيروم رفيقاً دائماً، وكأنه فرد من أفراد العائلة.

قالت مرة لوصيها:

- أتظن أننا يجب أن نشرك جيروم في أمورنا كلها تقريباً؟

- ألا تريدين دعوته يوم الخميس؟

- اوه.. لا أعني أنني أعترض على وجوده. فأنا أحب أن أراه دائماً.. لكن ما أخشاه أن أوحي إليه بأن هناك خطوبة ما قريباً وهذا غير صحيح.

- اوه.. أعتقده يفهم الوضع تماماً. فلا تقلقي. ولن ندعوه يوم الخميس إذا أردت. لكنه سيعرف أننا أقمنا حفلة واستثناه منها.

- لا أريده أن يتساءل.. ادعه بكل تأكيد.. لكن في المرة القادمة...

- لن أثير فيه أملاً زائفاً.

بانت بوادر الربيع تلك السنة باكراً، فراح جيروم يصطحبها للفروسية في النادي يومياً، وما ذلك إلا لأن تريفور قال إنه لا يحب ركوب الخيل إلا في الريف.. فكان أن رافقها جيروم مرة أخرى. وفي صبيحة ذات يوم قال لها جيروم إنه لن يتمكن من البقاء أكثر في المدينة.

- اوه جيروم سأفتقدك. متى سترحل؟

- في الأسبوع القادم. لدي قضية قانونية تتعلق بحدود أملاكي، ويجب أن أكون هناك في الأسابيع المقبلة. وأعتقد

www.liilas.com

أنك لن تسافري إلى البلدة قريباً؟

- لا أظن هذا.. فالسيد ستار سيبقى في المدينة حتى عيد الفصح على الأقل.

- آه.. هذا ما كنت أخشاه.

بعد رحيل جيروم، كان لمائي رفقة وصيها فشعرت بالسعادة، لأنها أحست بأنها أقرب إليه مما كانت منذ أن عرفت تصرفه مع جيري.. ومع أن تدليله لها كان قليلاً إلا أنها كانت واثقة من حبه لمرافقتها.

حين أزعجها مرة مداعباً إياها قائلاً إنها تظهر السعادة كلما رأت شيئاً جديداً كادت تقول له إنها تشعر بالغبطة لأنها ترافقه هو لا جيروم... مع أن جيروم طيب ولطيف.. لكن شيئاً ما قال لها إن مثل هذا التصريح، لن يكون مقبولاً فكبحته.

ثم في أحد أيام شباط وبينما كانا يعودان أدراجهما إلى المنزل معاً، سمعا صوتاً مألوفاً تحيه مائي وهو صوت لينا الجميل الصداح:

- مرحباً عزيزاي! ماذا تفعلان في هذا الجزء من العالم؟

قالت مائي وهما تتصافحان:

- كنا في طريقنا إلى المنزل.. فنحن نعيش في هذا الشارع، كما تعرفين.

رد تريفور ستار التحية ببرودة ثم ارتد مستنداً إلى الحائط ليراقب منظر لينا الساحر ووجهها المندهش في آن معاً.. وقالت:

- أتعيشان هنا؟ هذا غريب. كنت منذ قليل أتفقد أوضاع شقة مفروشة في هذا الشارع، وقررت أن أستأجرها فأنا وجيري

مضطران لإخلاء المنزل الذي نعيش فيه الآن.. أليست غريبة الصدف؟ سنكون جيراناً، كما كنا في الريف.

واستقام تريفور فجأة فابتسمت له بسحر قد يحتوي على شيء من الخبث.

كانت الأفكار تتسارع في رأس مائي، لكنها كانت تتأمل وصيها الذي لا شك يبحث عن مخرج لائق يرد به على لينا. لكن السيدة قالت قبل أن يقول شيئاً:

- سنرى بعضنا كثيراً، سيسر جيري حين يعلم يا مائي.

اجتازا المسافة القصيرة التي تفصلهما عن المنزل بصمت متوتر قطعه بقوله:

- هل أفهم أنك ما كنت على علم بهذا الأمر مسبقاً؟

- لا.. فلست ممن يتنبأ بالغيب.

وتوقفت المسألة عند هذا الحد.

لكن بعد أقل من أسبوع قال لها أثناء تناول الفطور:

- أرجو ألا يخيب ظنك مائي، لكننا مضطران للعودة إلى المنزل قبل الموعد الذي حددته.

- هل ستترك بشبرغ.؟ متى؟

- لا أظننا سنعود هذا الأسبوع.. بل الأسبوع المقبل لأن لدي أعمالاً تتطلب اهتمامي.

أحست بالحرارة تتصاعد إلى وجهها ثم تتلاشى ليحل مكانها البرود.. وقالت بصوت منخفض واضح:

- السبب هو جيري؟

- يا طفلتي العزيزة.. أنت تظرين جيري مايسون أكثر من اللازم. هل تعتقدين حقاً أنني أرتب أموري بحسب تحركاته.

www.liilas.com

وبدا لها انهامها الغاضب سخيفاً حتى تمنت لو امتنعت عن التفوه به ويبدو أن وصيها قد فهم شعورها، إذ قال:

- أعلم أن هذا الخبر أحبط عزيمتك، لكن أمامنا بعض الوقت قبل العودة إلى اندبان ستون التي هي في هذه الأيام ساحرة جميلة.

- لا أشك في هذا.. على كل الأحوال، أحب اندبان ستون في أي وقت من أوقات السنة.

كانت هذه طريقة تعتذر فيها عما بدر منها، إلا أنها لم تستطع التغلب على خيبة أملها لأنها ستترك المدينة في الوقت الذي سيكون فيها جيري.

أملت أن تقابله صدفة قبل رحيلهما.. لكنهما رحلا إلى الريف في يوم مشرق مشمس من أيام شهر آذار، ولم يكن هناك من أثر لآل مايسون... إنه حظ سيء طبعاً، لكن المرء قد يقنع بحظه السيء إذا لم يكن مدبراً.

اتصل جيروم بها في الليلة التي وصلا إلى اندبان ستون وقال لها إنه مسرور بعودتهما المبكرة. كانت مسرورة أيضاً لكنها أدركت أن الوضع الذي كانا عليه في المدينة سيعود الآن. إلا إذا فعلت شيئاً بهذا الخصوص.

قال لها عبر الهاتف:

- متى أراك مالي؟ فليكن اللقاء في أقرب وقت ممكن. ما رأيك بالغد؟

- سأتصل بك في الصباح جيروم.. ربما بعد الظهر.

عندما ابتعدت عن الهاتف بدت حائرة، تتذكر متألمة السعادة والترقب في صوته، رفع وصيها رأسه حين عادت إلى

غرفة الجلوس، وابتسم لها:

- حسناً.. ما الذي جعلك متجهمة هكذا؟

- اوه.. لا شيء.. على الأقل.. كان جيروم المتصل.

وبدأت تصب القهوة، فقال:

- هذا ما اعتقدته.

- وكيف عرفت؟

- تُرى من سيكون متلهفاً لعودتك سواه؟

- حسناً.. ليته غير مهتم بي إلى هذه الدرجة.

تناول فنجان القهوة بصمت، لكنها وجدت أن صمته لا يعجبها، ثم سأل بعد توقف:

- ولماذا يا مالي؟

- حسناً.. الموقف يخرج من يدي. لقد أمعنت التفكير ملياً في الموضوع ووجدت أنني رغم إعجابي به لا أريده زوجاً، ليتني أوضحت له ذلك منذ البداية، ولكنني ما كنت أعلم. و...

- ربما لا تعلمين.. حتى الآن.

- لا.. بل أعلم.. وهذه هي المشكلة. ولهذا لا أستطيع ترك الأمور على ما هي عليه. ويجب أن أخبره غداً بلطف أن لا أمل بالزواج به.

حل الصمت مرة أخرى.. ثم قال ببرود:

- لو كنت مكانك لما فعلت هذا.

في تلك اللحظة عرفت لماذا يخاف الناس من تريفور ستار.

• • •

www.liilas.com

٩ ـ منجم الرحمة

رفعت مائي بصرها إليه أخيراً بجهد فظنت أنها لم تشاهد قط هذا البرود واللمعان في عيني وصبها الزرقاوين.

وقالت بذهول:

ـ لماذا قلت هذا.. هكذا؟ جعلت الأمر.. تهديداً.

لم ينكر هذا.. بل قال ببرود:

ـ كنت أوضح لك، أنك مخطئة برفضك الزواج بجيروم.

ـ وما هي وجهة نظرك؟

ـ جيروم فالكون شريك مثالي.

ردت ببطء:

ـ لا أريد شريكاً مثالياً.. أريد رجلاً أحبه ويحبني. هذا كل شيء.

ـ يا عزيزتي.. أنت ساذجة إلى حد الإحراج.. فالحياة ببساطة لا تسير وفق هذه الشروط. جيروم فالكون مخلص لك. إنه رجل مستقيم، شريف، لائق، وثري، وصاحب مركز مرموق. إذا تزوجته، لن تبتعدي عني.. وهذا واقع، على ما أعتقد، يسعدنا معاً. فماذا تريدين أكثر؟

نظرت إليه مائي دون أن يرف لها جفن:

ـ لم تذكر السبب الحقيقي لرغبتك في أن أتزوجه؟ لم تذكر

الشيء الوحيد الذي له وزن لديك.

ـ لا أفهم.

ـ أنت تريد أن يتزوج جيروم بامرأة تقنعه بالتخلي عن قصر غراي.. أنت لا تهتم في الواقع بسعادتي أو سعادته...

ـ هذا ليس صحيحاً. فسعادتك تهمني، وأعتقد أنك ستكونين سعيدة بالزواج بجيروم.

ـ وماذا إن كنت سأكون تعسة معه؟

ـ إن رأسك مليء بالهراءات الرومانسية، ولا أظنك في حالة تسمح لك بالحكم السليم.. أنت أكبر من طفلة بقليل.. و...

عادت ترد عليه ببطء وكأنها تفكر بصوت مرتفع:

ـ ما عدت طفلة.. ربما كنت طفلة عندما وصلت إلى منزلك لكن ما من أحد قد يعيش معك دون أن يكبر.. وهذا ليس توبيخاً لك، بل هو حقيقة مجردة... ما يقوله الناس عنك صحيح. أنت رجل قاس عنيد ومصمم. لكنني لا أنكر أنك في الوقت نفسه وصياً لطيفاً لا أظن أن هناك من هو أفضل منك في هذا المضمار.

تغيرت أساريره قليلاً، ومد يده إليها بصمت، وبعد لحظة تردد تقدمت منه ووضعت يدها بيده، ثم أردفت:

ـ كنت مصمماً منذ البداية على تزويجي بجيروم.

ـ ولا زلت مصمماً.

تذكرت قول جيري: إذا تصادمت مصالحك مع مصالحه فهو يعرف تماماً مصالح من ستركن جانباً. ونظرت إلى اليد الجميلة القوية التي تمسك بيدها... وقالت هامسة:

www.liilas.com

- أنت.. قلت مرة.. إنك لن تجبرني على الزواج.

- أظن أن ما قلته إنني لا أستطيع إجبارك على الزواج بجيروم.

- لكن هذا ما تحاول فعله الآن بالضبط! أنت تعرف أنني لا أستطيع أن أراك غاضباً مني، وها أنت تلمح بكل الوسائل إلى أنني إذا تزوجت جيروم أبقى فتاتك الحبيبة. وإن لم أتزوجه.. ماذا ستفعل.

ابتسم لها، لكنها لم تكن ابتسامة مطمئنة:

- جربي هذا أولاً يا مالي.

- لن تبعدني عنك.. أليس كذلك؟

- قد أفعل.

ارتدت عنه:

- لا!

- اعلم أنني لن أرغب في فتاة متمردة تحت سقف بيتي.

- هذا ليس بالتمرد.. إن اختياري الزوج الذي أريد ليس تمرداً.

- يا حبيبتي! الخيار الأخير لك.

- لكن إن لم أختر الزوج الذي تريده، فهل تتخلى عن إدعاء حبي؟

رد ببرود:

- لكنني لم أدع قط أنني أحبك.

- أتعني.. أن حبك كان حقيقياً.

تقدمت منه لتركع إلى جانبه:

- اسمع.. إذا تزوجت جيروم، وأقنعته بالعيش في الديان

ستون. وتركتك تستولي على قصر غراي.. ثم حدث أن زواجي كان تعساً. فهل ستكون سعيداً وأنت تعلم أنني تعسة في المنزل الذي جعلتني أحبه؟

- لن تكوني تعسة.

- لكن، كيف تتأكد.. بل كيف تجبرني على الزواج برجل تريده أنت؟ ألا.. ألا تهتم بما قد يحدث لي؟

رد بخشونة:

- تعلمين أنني أهتم.

صاحت مالي:

- ما عدت أعرف شيئاً عنك! أعرف فقط التعجب والأمل، والخوف. قال لي الناس أشياء كثيرة عنك، وأنكرتها غاضبة. دون أن أعرف ما إذا كانت صحيحة أم لا... وأنا..

صمتت مترددة، لكنه سألها بهدوء:

- أنت ماذا؟

- حسناً.. أنا لا أستطيع تحمل سماع شيء يقال عنك.

- حتى ولو كان حقيقة؟

- حتى ولو كان حقيقة!

- كما حدث حين غضبت على السيدة ستوكمان لأنها قالت إنني أشبه إبليس؟ رغم أنك في ذلك الوقت ما كنت تعرفينني؟

- نعم، نعم، لكنني هذه المرة سأتشيط غضباً لأنني عرفتك حق المعرفة.

أحست به يقبّل شعرها، ويقول بنعومة:

- أيتها الغبية الصغيرة.. انهضي، لا تركعي لي.

- لم.. لم أكن أركع لك.. ولم أقصد التوسل.

www.liilas.com

أبعدها بلطف عنه:

ـ حسناً..

سأله بعد صمت:

ـ ماذا.. ستفعل بالأمر؟

اعترف تريفور ستار للمرة الأولى بفشله:

ـ لا أدري ما أفعل.

ثم، وكأنه لاحظ غرابة ما قال، أضاف بنفاذ صبر:

ـ من الخير أن تذهبي إلى النوم.

التفتت إليه أمام الباب فرأته يرقبها مفكراً. وما إن التقت عيناهما حتى أحست بتيار غريب من التفاهم بينهما. فماذا يهم لو تخاطبا كعدوين منذ لحظات؟ ودون أن تقول كلمة عادت إليه تعانقه وتقبله. فلم يقل هو أيضاً شيئاً، بل أمسكها يضمها إليه لحظة، ثم أبعدها بلطف، كما فعل من قبل، فتوجهت رأساً إلى غرفتها.

وهناك في غرفتها راحت تستعيد ما حدث.. وظنت أنه ليس جاداً. فهو لن يبعدها عنه. وربما كان يحاول إزعاجها بالمزاح بطريقته الخشنة. لكن من ناحية أخرى، قد يكون هناك شيء من الحقيقة في فكرته.. ولن يلام لو قرر أن يدربها حتى تكتسب رزقها بنفسها كأن تسكن في مكان آخر وتعمل. نعم هي لن ترفض العمل، لكنها لا تريد أن يبعدها عنه غاضباً.

كان الوقت متأخراً حين غطت في النوم لكنها بعد أن غفت، هاجمتها أحلام غريبة مقلقة، كان فيها وصيها وجيروم غاضبين منها. إلا أن جيري وحده برز لها وهو يقول لها إن لا بأس عليك، فقد يوظفها مدبرة منزل في المكان الذي استأجره

وأمه ليسكنا فيه. ثم شاهدت نفسها تحاول إيجاد السيدة هدسون وهي وجلة لتتعلم منها واجبات مدبرة المنزل.

كان الوقت متأخراً حين استيقظت، فقد أغرقت أشعة الشمس غرفتها.

ووجدت في الردهة أن إحدى المشاكل التي تخشاها، قد تأجلت، فوصيها كان قد تناول الفطور وخرج.

ـ هل بدا.. مرحاً سيدة هدسون؟

ـ مرحاً آنسة بروكتر؟ السيد ستار ليس بالرجل المرح. لكنه لم يكن متزعجاً.

وافقت مائي على كلامها.. وتناولت طعامها بسرعة. ثم قررت الاتصال بجيروم، لتوضح له ما في فكرها في أقرب وقت.

حاولت الاتصال به هاتفياً مراراً ولم تنجح، فهاتفه معطل.. لكن يجب أن تراه اليوم، لكنها عادت فعدلت عن رأيها وقررت الخروج للنزهة. فارتدت معطفاً وخرجت من المنزل.

كانت تكره ما ستقوله لجيروم، لذا راحت تسير على غير هدى في طريق بعيدة طويلة، أوصلتها إلى تلة مرتفعة أمامها أراض مترامية ليست كالتي أراها إياه جيري، لكنها أراض ريفية واضحة للعيان، وفي أعلى المرتفع شاهدت على غير توقع وصيها.

كان قد ترجل عن جواده منذ مدة، لأن الجواد كان يأكل راضياً عشباً ندياً. وكان تريفور ستار يقف، ويداه في جيبه، ينظر إلى الوادي، ولم تكن بحاجة لاتباع نظرته حتى تعرف أنه

zohra.liilas.com

ينظر إلى قصر غراي.

وقفت مقطوعة الأنفاس تراقبه، فشعرت بأن مصيرها سيتقرر بصمت في تلك اللحظات. أينظر إلى قصر غراي متسائلاً عما إذا كان يستحق معركة جديدة؟ أيهيىء نفسه للتعاطي مع الموقف بقسوة؟ أم سيودع القصر باستسلام متجهم؟

بينما كانت تراقبه، أطلق تنهيدة طويلة تدل على نفاذ الصبر، ثم هز كتفيه واستدار. حين استدار، شاهدها تقف على حافة الوادي المفتوح، تبادلا للحظات النظرات، وكأنهما ما زالا في تلك الغرفة ليلة أمس.

ثم تقدمت إليه فوضعت ذراعها في ذراعه، وسألته بنعومة:

ـ ألا تريد أن تتخلى عنه؟

ـ لا. لا أريد.

ولف ذراعه حولها فقالت:

ـ ومع ذلك ستتخلى عنه؟

ـ اجل.

ـ لماذا؟

انحنى ليقبل خدها الناعم، ويقول بسخرية:

ـ ربما.. لأن سعادتك تهمني أكثر.

احتضنته مائي بحنان وهي تبتلع ريقها بصعوبة فقال:

ـ لحقت بي إلى هنا لتعرفي هذا؟

ـ اوه.. لا! كنت أود رؤية جيروم.. وفكرت في أن أتخذ هذه الطريق الطويلة.

ضغط على شفتيه وكأنه يحاول السيطرة على غضبه بسبب تمردها وقال:

ـ حسن جداً.. اذهبي وسوّي المسألة.

ـ إلى أين ستذهب؟

أمسك سرج جواده وقال:

ـ أنا؟ لن أفسر الموقف لفالكون، أليس كذلك؟

ـ اوه.. لا.. كنت أتساءل فقط.

ـ سأقصد مروج بلدة غراي.. لدي عمل هناك ولن أعود حتى الغداء.

ـ وهل تستطيع الوصول من هنا؟

ـ ثمة طريق وعرة، في التل الآخر.

ـ ألن تجد صعوبة؟

ابتسم لها:

ـ لا لا أعتقد. إن من يعرف الطريق جيداً لا يجد صعوبة تذكر. لقد اجتزت هذه الطريق منذ الطفولة.

انحنى ليقبل وجهها:

ـ هيا.. اذهبي وسوّي أمورك مع جيروم.. وإن أردت شيئاً تشغلين به وقتك حتى أعود فاكتبي رسالة لطيفة لصديقك جيري مايسون.

ثم ضحك ضحكة ساخرة غاضبة واعتلى بعدها صهوة جواده وانطلق قبل أن تعلّق مائي بشيء.

بينما كانت تقصد القصر سمعت هدير سيارة تتقدم.. التفتت إلى مصدر الصوت فإذا بها ترى جيروم الذي توقف فجأة وخرج ليمسك بكتفيها:

ـ مائي يا عزيزتي! كنت أقصد الذهاب لأراك.

ـ وأنا كنت أقصد قصر غراي... جيروم، ثمة ما علي أن

www.liilas.com

أقوله لك ربما لن تكون مسروراً مما ستسمع. لكن يجب أن تعرف.

- هل أنت مخطوبة لرجل آخر؟

- لا.. لا شيء من هذا القبيل.. وأنا آسفة جداً جيروم، فقد تأكدت الآن أنني لا أريد الزواج بك. لذا أرجو ألا تتعلق بي أكثر من هذا بسبب.

ابتسم باختناق وقاطعها:

- لا أستطيع منع نفسي. فأنت من فئة نادرة من الفتيات.

- ثمة فتيات كثيرات من فئتي.. أشعر بأنني كنت متوحشة لأنني تركتك تأمل طويلاً.. لكنني حاولت صدقاً منذ البداية.. لكن...

- لا بأس مايي. أنا كذلك حاولت استعجالك في البداية، وكنت صريحة معي، فلا تلومي نفسك عزيزتي. ربما هي ضربة موجعة لي، لكنني لا أدري لماذا بقيت أملاً.. حسناً.. أعرف الآن رسمياً أن لا أمل. لكنني لن أفتش عن فتاة أخرى قبل أن توافقي على شخص آخر.

ضحك باضطراب، فقالت بجد:

- حسناً، وأنا أتمنى أن تقول لك فتاة لطيفة أخرى «أجل، أقبل بك» يوماً ما. أنت لا تفكر في هذا الآن... لكن.. الله وحده يعلم كم أتمنى لك السعادة يا جيروم.

ضحك، مجيراً على المرح:

- سأعيش.. وكيف كان وقع الخبر على ستار؟

- خاب أمله بداية، لكنه وضع سعادتي في الدرجة الأولى. تركته منذ قليل، كان يركب جواده سالكاً المروج وصولاً إلى

غراي للقيام بعمل هذا الصباح.

- غراي؟.. لا يستطيع أن يسلك طريق المروج اليوم. فسيسقون الطريق القديمة ظهراً، وقد أقفلوا جميع المنافذ إليها. ألم تنذركم الشرطة هاتفياً؟

- إنهم.. إنهم ماذا؟ لا غير ممكن!

وشحب لون مايي شحوب الأموات، فأمسك بها جيروم مطمئناً:

- لا بأس عليك مايي! لا تنهاري هكذا. لقد اتخذوا كل التدبيرات الاحتياطية.. سيعيدون تريقور قبل أن يصل إلى الطريق.

- لم يسلك الطريق المعروف!

- ماذا تعنين؟

- قلت لك إنه سلك طريقاً بين المروج، طريقاً قال إنه يعرفها منذ الطفولة.

- كيف يسلكه؟ الأبله! لقد نشرت الصحف المحلية تحذيرات منذ ثلاثة أسابيع.

- لكننا وصلنا بالأمس فقط.. ولم يهتم بالنظر إلى الصحف القديمة.

- أمتيقنة من أن الشرطة لم تحذركم هذا الصباح؟

هزت رأسها ثم تذكرت:

- لا.. كان الهاتف معطلاً حين حاولت الاتصال بك هذا الصباح. جيروم.. كيف كان له أن يعرف! اوه يا إلهي.. هذا رهيب! كم الساعة الآن؟

نظرا معاً إلى الساعة وصاحا معاً:

www.liilas.com

- اوه.. عشرون دقيقة حتى منتصف النهار.

وأردفت ماثي:

- يجب أن نلحق به.. يجب أن ألحق أنا به.

أمسك بيدها:

- لا تكوني حمقاء. لا يستطيع أن يلحق به أحد من تلك الطريق حتى تنتهي عملية النسف. لن يسمحوا لك بالذهاب.

- لكنه سيقتل يا جيروم!

- يجب أن يواجه فرصته. قد يرونه فيعيدونه.

- لا.. لا.. هذا غير صحيح.. أعلم أنه في خطر.. اوه جيروم أرجوك.. فكر في حل!

- لا يمكنك اللحاق به.. هذا أمر أكيد.

- أرجوك اذهب إلى ذاك التل علك تراه من بعيد.

- حسناً.. أتأتين معي؟

- لا أستطيع رؤيته يدنو من الخطر!

وجلست منهارة على حافة السيارة.. سار جيروم بضعة أمتار نحو التل، فراقبته راضية.

حين وصل إلى أبعد نقطة تقريباً، تسللت إلى مقعد السائق. فإذا بهدير المحرك القوي يجعل جيروم يصرخ غاضباً، وحين بدأ يركض نحوها انطلقت السيارة مبتعدة.

إنها خدعة لئيمة شريرة فعلاً تقوم بها ضد هذا المسكين الذي وثق بها، وهي خدعة لا تبرير لها في أية ظروف أخرى.. لكن في مواجهة مثل هذه الأزمة، لا مجال للخيار.

اجتازت القرية بسرعة البرق ثم انتهت إلى الطريق التي تفضي إلى المروج، ليس إلى الطريق الأخرى الآمنة بل إلى

الطريق المحظرة على الجميع اليوم. ترى أيكون المانع حواجز مادية، أم شرطي يحمل راية حمراء؟

بعد ثلاث دقائق أجيب عن سؤالها، ففي منتصف الطريق كان هناك حاجز خشبي يقف قربه شرطي أشار إليها بالتوقف، براية حمراء براقة.

ضغطت قدمها على دواسة السرعة، وانعطفت من ناحية السياج الخشبي الآخر فوق العشب، ثم عادت إلى الطريق فوجدت نفسها تطير بسرعة لم يحدث أن بلغت هذا الحد من قبل..

بعد ابتعادها، راحت تنظر إلى جانب التل تبحث عن الطريق الذي قد يسلكه فارس، وكانت بين الحين والآخر تنظر إلى ساعتها برعب.. فلم يبق على الانفجار إلا تسع، ثماني، سبع دقائق.

في تلك اللحظة رآته.

كان على بعد ربع ميل منها.

صاحت صيحة المنتظر وحلبته ثم أوقفت السيارة بسرعة جعلت الإطارات تطلق صريراً حاداً، في حين أن الجواد المذعور تراجع غاضباً.

- ماذا دهاك بحق الله ماثي!

لكن وجهها الشاحب أنبأه بكارثة، فنزل بسرعة وتقدم إليها:

- ما الذي حدث؟

شهقت:

- اركب السيارة.. سينسفون الطريق وقت الظهيرة تماماً

www.liilas.com

وليس أمامنا إلا دقائق خمس.

وكان من حسن حظها أنه لم يحتج إلى التفسير ليفهم بسرعة. نظر بسرعة إلى ساعته، أجال بصره في ما حوله ليحدّد مكانهما بالضبط بالنسبة للانفجار الوشيك ثم أدار جواده إلى الناحية التي قدمت منها مائي وضربه بحدة بالسوط الذي يحمله، وراقب انطلاقه الغاضب إلى حيث لا يدري أنها السلامة.

وقال بحدة:

- ابتعدي عن المقود.

ابتعدت مرتجفة عن المقود وسألها:

- الساعة مضبوطة؟

- أظن هذا.

- إذن قد ننجو.

كانت مائي تظن نفسها قد وصلت إليه بسرعة، لكن خلال دقيقة ونصف طارت بها السيارة حتى مال رأسها، وحين هبطت بهما السيارة إلى فسحة من العشب ظنته للحظات قد فقد السيطرة على السيارة.. لكنه سارع إلى إيقافها في أسفل المنحدر صائحاً:

- اخرجي منها.

لم يكن هناك وقت سوى للأوامر القاطعة، وللطاعة غير المترددة.

ما عادت تجرؤ على النظر إلى الساعة الآن. فتسللت من السيارة وأحست بيدها في يد قاسية لولاها لوقعت أكثر من مرة أثناء الركض للوصول إلى الأسفل. ثم لم يلبثا أن تجاوزا

بسرعة كتلة متشابكة من أشجار العليق وأغصان الأشجار المتدلية، ورماها أمامه إلى ما بدا أنه سفح التل نفسه.

اندفعت وهي تشهق إلى جدار من النباتات، انهار أمامها، فإذا بها أمام ما يشبه كهف مغطى بالعشب والعنكبوت. فصاحت مذهولة:

- كيف عرفت بهذا؟

- تراجعي إلى الوراء، بعد واستلقي أرضاً... إنه مدخل أحد المناجم القديمة.

- لكن عجباً كيف فكرت...

ما تبقى مما كانت ستقوله لم يخرج من فمها إطلاقاً، ففي تلك اللحظة، دوى انفجار رهيب هزّ الكون فشهقت منقطعة الأنفاس، وقد أرعبها الصوت حتى الموت فخبأت رأسها بين ذراعيها. في الوقت نفسه أحست به يرمي بنفسه إلى جانبها، وأحست بذراعه تحيط بها.

كانت تشعر، أكثر مما تسمع، بدقات قلبه.. أم هذه دقات قلبها؟ شيء ما أبقى على تلك الضربات حية في عالم يهتز بقوة حولهما.

بدا لها أن ذلك الانفجار الراعد استمر دقائق، ثم أحست فجأة أنه ما عاد يدوي في أذنيها.

قال لها وصيها بصوت هادىء غريب:

- انتهى الأمر.

شهقت مائي براحة، فسارع إلى جذبها إليه، لكن في الوقت نفسه دوى انفجار آخر، أخف لكن أقرب إليهما مما جعلهما يتعلقان ببعضهما بعضاً بقوة. وسمعا صوت ارتطام

arabic.bilas.com

الصخور وتساقطها إلى الأسفل. غطت ماثي مرة أخرى وجهها برعب لكن في صدر وصيها. ثم رفعت رأسها فإذا الظلام دامس، حيث لا نور يتسلل من خلال جدار الأعشاب المتنامية أمام المدخل، ولا مدخل أو مخرج.

* * *

١٠ ـ البيت الأخير

همست ماثي باضطراب:

ـ ما الذي حدث؟

ثم كررت بإلحاح لأن وصيها لم يرد عليها:

ـ ما الذي حدث؟

رد ببطء:

ـ لست واثقاً...

أحبته في تلك اللحظات كثيراً لهدوء صوته الذي كان يريد أن يبعد عنها الخوف.

ـ أظنه انزلاق أرضي سدَّ علينا مدخل المنجم.

ـ أتعني أننا مسجونان هنا؟

ـ ليس بالضرورة.. ربما لا. لو تركت ذراعي يا حبيبتي فسأخرج قدَّاحتي لأرى ما أستطيع القيام به.

أدركت عندها أنها كانت متعلقة به بشدة.. تمتمت باعتذار ثم تركته، لكنه وجد خدها في الظلام وقبله. ليظهر لها أن الاعتذار غير ضروري.

ثم سمعت صوت القدَّاحة التي اشتعلت، أوه أيتها الشعلة الصغيرة الحلوة! ها أنت تقفزين إلى الحياة ضد هذا الظلام الدامس كله.

www.liilas.com

دنا من المدخل المسدود. ودنت معه وبقيت جزئياً على مقربة منه لتستقي منه الشجاعة. ثم أعطاها القدّاحة لتمسكها، وتمنت ألا يلاحظ ارتجافها حتى تتمكن من السيطرة على نفسها.

راقبته يمرر يديه القويتين المحدقتين على سطح الكتلة غير المستوي. ثم أمسك بشيء صخري، حاول دفعه بقوة حتى ابيضت يداه وكاد الدم يخرج من بين أظافره. لكن ما أن زحزحه حتى تصاعد صوت راعد هو لحركة الأجزاء الصخرية الأخرى. فارتد فجأة.

تناول القدّاحة من مائي ومدها أمامه، يلف ذراعه في الوقت نفسه خلفها مطمئناً قلبها.

- ستستخدم هذه وقت الحاجة فقط.. والآن أخبريني... أهناك من يعلم بقدومك؟

- اوه... اجل.. جيروم يعلم.

وأخبرته بالخدعة التي قامت بها. فقال بخشونة:

- أيتها الحمقاء الصغيرة السخيفة. لماذا أردت ركوب مثل هذه المخاطرة اللعينة الحمقاء؟

لكنه كان يضمها إليه... فقالت همساً:

- ظننتك قد تقتل!

- وهل ظننت أن الأمر سيكون أفضل لو قتلت أنت كذلك؟

- كان يجب أن أحاول إنقاذك.

- ليس هناك «كان يجب». أيعلم أحد آخر بقدومك؟

- اجل الشرطي الواقف أمام الحاجز. حاول إيقافي، لكنني تمكنت من الإفلات منه.

- حسناً.. هذا يعني أنهم سيفتشون عنا بعد قليل. وأظن أن سيارة جيروم ستكون ظاهرة على الطريق.

وفكرت: هذا إذا بقي منها شيء بعد الانفجار. فعلمت من خلال صمته المفاجيء أنه يتساءل مثلها عما بقي من سيارة جيروم الفاخرة. ترى هل بقي منها شيء يشير إلى مكانهما. وقالت تجاهد لجعل صوتها ثابتاً:

- إنه أمل ضئيل.. أليس كذلك؟

- ربما.. لكن.. إذا بقي شيء من السيارة ليقص قصتنا، فسيفكر أحد في مدخل المنجم المهجور، ثمة أشخاص عدة يعرفونه في القرية.

- عندها سيضطرون إلى الحفر لإخراجنا... أتظن حجارة كثيرة هوت وسدّت علينا المدخل.

- من المستحيل أن نعرف.

- أليس من الأفضل معرفة ما يمكننا القيام به من هذه الناحية قبل أن يصل إلينا أحدهم؟

- لا.. سنفكر في هذا كآخر ملاذ. نحن لن نقوم بأي عمل في هذا الظلام، خشية أن يتزايد تساقط الصخور. سنمهلهم ساعتين حتى يجدوا موقعنا.

- وبعد ذلك؟

- سنجرب حظنا في فتح ثغرة بأيدينا. اجلسي أرضاً فيجب ألا نتعب أنفسنا إذ قد ننتظر طويلاً. وسيكون الانتظار طويلاً طويلاً، ربما ساعات أو أياماً.

وأحست بجسدها يقشعر وهي تتصور تعبير «دفنا حيين». لكنها نحّت هذه الفكرة وبحثت عن فكرة أخرى ملؤها الأمل.

www.liilas.com

فجلست أرخاً ومدت يدها إلى يد وصيها، الذي أطبق يده عليها بقوة وحزم، وبرقة غريبة، لم تكن تدرك من قبل كم قد يقال باللمس. حين ترى شخصاً لا تجد نفسك بحاجة للشعور به. أما حين لا يكون حولك إلا الظلام فأكثر ما تأنس إليه هو أول المشاعر البدائية.. اللمس!

شدت نفسها إليه أكثر حتى أرخت ذراعها على ذراعه.. وقالت كأنهما يتبادلان حديثاً عادياً:

ـ شرحت لجيروم سبب رفضي الزواج به.

ـ وكيف كان وقع الخبر؟

ـ تلقاه بهدوء.

ـ لقد سار كل شيء على ما يرام إذن.

ـ أعتقد هذا.

ـ كيف تتخلين عن هذا كله. إن هذا لسخيف! أليس كذلك!

ولف ذراعه حولها، فقالت هامسة:

ـ لا أظن هذا.

صمت للحظات.. ثم قال ببطء ربما لأنه يسهل التحدث في الظلام:

ـ أنا آسف لأن الوقت لم يسمح لك بإخبار جيري.. أخشى أنني أفسدت الأمور عليك يا ماثي.. يا لسخافتي! كيف أحدثك بموضوع كهذا ونحن هنا.

ـ لا تقل شيئاً.

وبدأت بلطف تداعب اليد التي تمسك بها، فوضع ذقنه على شعرها.

ـ ولماذا تطلبين مني ألا أقول شيئاً؟ أنا لست جاهلاً، أعلم أنك اخترت جيري، منذ البداية.. لكنني أردت أن تتزوجي بجيروم، وظننتني بوضعي نهاية سريعة لاتصالك بجيري أستطيع إيقاف الضرر فأزوجك بسعادة بجيروم.

أغمضت عينيها تتظاهر بأن ما عليها إلا أن تفتحهما حتى ترى ذلك الوجه الحبيب الساخر. وسألته:

ـ أكنت متيقناً إلى هذا الحد من حبي لجيري؟

ـ أجل، وقد أذكر أمامك أسباب يقيني هذا. لقد أحست بالانزعاج منذ اليوم الأول، منذ أن قلت إنه أقلك بسيارته إلى انديان ستون، ثم أزعجتني بعد ذلك المكالمة أكثر.. وما إن أصبحت جاهزة للذهاب إلى النوم تلك الليلة، حتى كان وقوعك في حبه بادياً للعيان.. ولم أكن أؤمن من قبل أن هذه أمور تحدث لكنها حدثت أمام عيني. وهذا صحيح.. أليس كذلك؟

ـ أحقاً وقعت في الحب منذ الأمسية الأولى؟

ـ أجل.

ـ أجل.. أنت على حق.. لكنني لم أقع في حب جيري، أتعلم، لقد وقعت في حبك أنت.

ـ ماثي!.. ماذا.. تقولين؟

ـ الحقيقة. ليس أمامنا فرصة كبيرة للخلاص من هنا.. نحن على قيد أنملة من الموت. لكن ثمة ما هو أهم من الموت.. وهذا هو.. الرباط بيني وبينك.

ـ يا الهي! وأنا من ظننتك طفلة!

ـ أتعني.. أنك لم تفكر فيّ كامرأة؟

www.liilas.com

ـ لا.. لا أعني هذا أبداً.. لماذا تقولين هذا الآن..؟ هل استنتجت شيئاً هذا الصباح...

سألته بلطف:

ـ وماذا قد أستنتج؟ هل اكتشفت أنك تحبني ليلة أمس؟ لأنك تحبني طلبت مني هذا الصباح أن أكتب لجيري مايسون لأصلح الأمور معه؟

ـ وكيف عرفت؟

ـ أعتقد أن المرء حين يحب بجوارحه كلها وبقلبه وعقله، كما أحبك أنا، لا يجد صعوبة في معرفة الحقيقة.

ـ حبيبتي.. ما كنت قادراً على معرفة أفكارك.. أهذه هي الحقيقة!.. يا الهي.. ليتني أرى وجهك الآن!

قالت بسهولة وبساطة:

ـ ليس من المهم أن تراني، فأنت تستطيع الإحساس بي، كما أحس بك تماماً... وهذا هو أهم شيء.

ضحك بحنان.. وأحست بيده تداعب وجنتها وذقنها، ثم قال بهدوء وبطء:

ـ اجل أستطيع الإحساس بك. يا لهذا الوجه المستدير البريء! ويا لعينيك النجلاوين!

ـ إنهما مغمضتان الآن. حتى أتظاهر أمام نفسي بأنني إذا فتحتهما سأرى وجهك.

سمعته يحرك القداحة، وهو يقول آمراً:

ـ افتحيهما.

وفتحتهما فوجدته هناك، لكنها لم تكن قد شاهدت مثل هذا التعبير الذي على وجهه من قبل. فصاحت بإعجاب.. ثم انطفأ

النور واحتواها بين ذراعيه ليضمها ويقبل وجهها ورأسها وعينيها اللتين عادت تغمضهما. فهمست:

ـ أنا سعيدة لأنني رأيتك هكذا، ولو لمرة، وأنا الآن لن أعبأ أبداً لو... لو...

فقاطعها:

ـ حبيبتي.. لماذا أحببتني؟ أنا لست رجلاً طيباً... بل لم أكن لطيفاً كل اللطف معك إلا في الأمور المادية، التي أستطيع دفعها بسهولة. أنا بارد.. أحب كل شيء، أما أنت فحلوة، دافئة، مندفعة، ومفعمة حيوية. وأعتقد أنني أكبر منك بسنوات كثيرة.

ضحكت ولفت ذراعيها حول عنقه:

ـ لن أجيب عن هذا. فكلامك منطقي لكنه خال من المعنى الحقيقي. أنت حبي، ولن أناقشك فيه. حين رأيتك للمرة الأولى، بدوت لي مختلفاً عن كل البشر وكنت سعيدة لأنني قلت لأولئك الناس في القطار أن لإبليس معنى آخر هو «الوضاء» فقد بدوت فعلاً وضاءً. ثم كنت لطيفاً، فقلت لي إنك تأمل ألا أشعر بأنني إنسانة غير مرغوب فيها بعد الآن.. ولقد نسيت هذا الإحساس، الإحساس بأنني فتاة غير مرغوب فيها منذ أن وطئت قدماي انديان ستون.

فقاطعها بخشونة:

ـ وما عاد إليك هذا الشعور حتى عندما قررت تزويجك بجيروم؟

ـ لا.. فقد كنت أعلم، وكنت أعلم دائماً، أنك تحبني، وربما تكره نفسك، لأنك تحبني.

www.liilas.com

فضحك معترفاً بسخرية هذه الحقيقة، فأكملت:

ـ لكنني حسبتك تريد قصر غرامي أكثر من أي شيء آخر. وما استسلمت أخيراً، لأنك توقفت عن الرغبة فيه، بل لأنك اكتشفت أنك تحبني أكثر.

قال وشفتاه على خدها:

ـ وعندما شعرت بأنني أخسرك.

أحس بها تبتسم:

ـ لماذا لم تخطط منذ البداية حتى أكون لك؟

ـ أتودين معرفة الحقيقة؟

ـ أجل.

ـ لأنني اكتشفت حقيقة مذهلة وهي أنني أهتم بسعادتك أكثر مما أهتم بسعادتي. وأنت لا تعلمين كم كان هذا الاكتشاف جذرياً في حياتي يا مائي.

وضحك مع شيء من التجهم:

ـ أنا مخلوق بارد أناني عادة...

ـ أوه.. لا!

ـ بلى.. ويجب أن تعرفي أي نوع من الرجال ستتزوجين.

صمت فجأة، وران الصمت بينهما.. ولأنه وصف الوضع بكلمات محددة. شعرا بالحقيقة الباردة تضرب حرارة أحلامهما المثالية. فمن هما ليتكلما عن المستقبل؟ فربما ليس لهما مستقبل.

تشنجت بسرعة ثم دفنت وجهها في صدره وجمدت دون حراك، إلا من ارتجاف بسيط لم تستطع السيطرة عليه.. فمسح شعرها بيده وقال بلطف:

ـ حبيبتي لا تخافي.. قد...

ـ أعلم.. أعلم.. ولـ.. لست خائفة كثيراً.. على الأقل.. ليس وأنت تضمني... إنني لا أخاف إلا هذه الظلمة.. الدامسة.

لكنه لدهشتها قال بخشونة:

ـ اصمتي.

ـ أنا آسفة.. لكن..

ـ اصمتي.

أدركت فجأة أنه يعني حرفية ما يقول وأنه يريدها أن تصمت. فمن الضروري أن يبقيا صامتين. واشتدت قبضته عليها بتوتر مؤلم، ولم تسمع أي صوت عدا تنفسهما السريع الخفيف وضربات قلبيهما.

ثم سمعت من الناحية الأخرى للحاجز المنهار نداءً ملحاً مخنوقاً يقول:

ـ هالوو...!

وضعا دفعة واحدة، أيديهما على فمهما وردا على النداء. وعاد الصمت مجدداً...

ثم عاد النداء الملح ثانية من العالم الخارجي. فردا على النداء بكل ما أوتيا من قوة وجاءهما الرد بأنهم عرفوا مكانهما. فشهقت مائي:

ـ لقد وجدونا. وجدونا!

وفجأة أجهشت بالبكاء:

ـ لا تبكي حبيبتي وإلا بكيت معك.

حين توقفت عن النشيج قليلاً وشهقت بضحكة خفيفة من

www.liilas.com

خلال الدموع، نهض وشدها لتقف معه ثم أبقاها بين ذراعيه. عندما كانا واقفين معاً أصغيا إلى الأصوات، التي بدت أوضح الآن.. تظهر عن جهوداً متسرعة لإطلاق سراحهما. همست له:

- لن يتغير الوضع حين ننجو.. أليس كذلك؟ أعني.. هل ما قلناه ما زال قائماً.. أنت.. أنت لم تقل هذا بدافع اللطف فقط.. لأنك اعتقدت أنك بقولك ذاك تواسيني قبل أن نموت.

- أي هل أحبك فعلاً؟

- اجل.. هذا ما أعنيه.

- يا الهي يا محبوبتي.. أنا أحبك بكل ذرة من كياني الذي لا يستحقك أو يناسبك. فإذا خرجنا من هذا الجحيم فسأضع كل ما أملكه تحت قدميك، للحصول على بسمة وكلمة سماح منك.

- يا حبيبي أنا مسرورة لأنني هنا معك.. ما كنت لأحتمل الوجود خارجاً وهم يحفرون لإنقاذك.

همس بمحبة:

- أيتها البلهاء!

ظهر في تلك اللحظة بصيص نور مبارك كسر الظلام. فقالت مائي بصوت خفيض وقور:

- يا الهي! ما أجمل النور! لن أنظر إليه على أنه أمر مسلم به بعد اليوم!

كان النور بالنسبة لها رمز الخلاص الكبير.

وتناهت إليهما، بالطبع أصواتاً تتحدث إليهما.. ثم أدركا أن الحاجز بدأ يزول.. وسرعان ما كان هناك فجوة تتسع زحفاً منها إلى الخارج وسط صيحات الفرح والتحيات من مجموعة

كان يتوسطها جيروم.. لكن بالنسبة لمائي، كانت لحظة تسلل النور إلى الداخل هي لحظة المعجزة الحقيقية.

وسمعت جيروم يقول بحرارة وارتباك:

- ليتقدس اسم الله!

ودون أن يهتم بمن حولهما احتواها بين ذراعيه ليضمها. فاستجابت له مثلهفة:

- اوه جيروم حبيبي.. شكراً لك. أرجوك سامحني على خداعي لك. و.. و.. هل تدمرت سيارتك؟

رد من أعمق أعماقه:

- لا يهم.. المهم أنه بقي منها ما دلنا على مكانكما.

ثم استدار ليصافح تريفور ستار وسمعت مائي وصيها يقول:

- أشكرك لأنك أنقذت أثمن ما لدي في الوجود.

بدا جيروم دهشاً بضع لحظات ثم استنتج أنه لا يشير إلى إنقاذ حياته. فابتسم له ثم سعى ليضع مائي في سيارة تقلها بسرعة إلى الديان ستون.

أرادت مائي أن تقول إنها تريد وصيها معها، لكنه كان قد وضع في سيارة أخرى، ثم وجدت أن من اللباقة أن تبقى مع جيروم بعد أن أنقذها. قال لها جيروم وهما في الطريق لإيصالها:

- يا الهي مائي! لقد أمضيتما نصف ساعة فظيعة قبل أن تحدد مكانكما.

- أكانت نصف ساعة فقط؟

- ليس أكثر بكثير. كانت ساعة ليس إلا.

www.liilas.com

- بدت وكأنها دهر، لكنها في الوقت ذاته كانت قصيرة حتى تقول ما تريد.

- يا الهي! أتحدثتما طويلاً؟ اعتقدت أن بضع صيحات وجلة كافية.

ضحكت، ثم قالت بلطف:

- جيروم.. لا تحزن، فأنا أحب تريفور.. وهو يحبني.. وسيتزوجني.

- لكن.. يا الهي! إنه وصيك!

- أعرف هذا... لكنني أحببته منذ البداية... وقد تأخرت في اكتشاف شعوري.

- إنه كبير مائي. إنه.. حسناً.. إنه في الثلاثينات وما أنت إلا طفلة وهو إلى ذلك لا يملك في عروقه نقطة دم حمراء، أو نبضة فيها حرارة. وأنا لا أريد أن أنزل من قدره لكنه ليس بالإنسان العادي بالنسبة لك... وأنا لا أتكلم من وحي غيرة شريرة، لكنني لا أراه الشخص المناسب لك. على كل الأحوال كنت أظنك تحبين مايسون.

فابتسمت:

- وهذا ما كان يظنه تريفور. وربما اعتقدت أنني أحبه وذلك عندما كان له إغواء الفاكهة المحرمة. لكنني وجدت أنه مجرد صديق.. مثلك تماماً.

- أيعرف أنه صديق، مثلي؟

- أظن هذا. فنحن لا نتقابل إلا قليلاً.

- حسناً.. هذا ليس شأني.. لكنني يجب أن أقول إن ستار استفاد من فرصة غير عادلة.. حسناً.. فليس من حق أي رجل

البدء بمطارحة فتاة الحب وهي بطريقة ما مدفونة حية، متوترة الأعصاب والعواطف.

- لم يكن الأمر كما تقول.

وبدأت تضحك بهستيريا:

- حسن جداً.. سأقول.. إنني آسف.. ما كان يجب أن أقول لك ما قلته.. ماذا دهاك مائي؟

- لقد استفدت أنا من الموقف لا هو.. لا يهم الآن فلا أستطيع أن أشرح لك.

واكتفى جيروم بهذا على مضض.

عندما وصلت إلى المنزل سارعت السيدة هدسون إلى وضعها في الفراش باعتبارها مصدومة. وقد أحست بالراحة للاستلقاء في الفراش، وتقبل المهدىء الذي أعطاه لها طبيب صارم النظرات، حتى تنام.

حين استيقظت، وعت أن تريفور لم يعد وصيها.. إنه حبيبها.. وإنه متوتر الأعصاب لأجلها. وها هو يقف أمام النافذة فقالت بهدوء:

- حبيبي!

اسمه الأول ما يزال غريباً عليها. فالتفت فوراً ودنا من السرير، منحنياً فوقها:

- حسناً يا أعز الناس؟

- أنا بخير.. هل أنهض لتناول العشاء؟

مسح شعرها الأسود مبتسماً:

- إذا أحسست أنك قادرة.

- أجل.. فلست في الحقيقة مريضة.. وأنت تعرف،

www.liilas.com

ـ أعرف هذا.

جلس على السرير ليحتويها بين ذراعيه وكأنه تذكر أنه كان على قاب قوسين أو أدنى من فقدها، فأسندت نفسها إليه وسألته بغباء:

ـ أيعجبك حبك لي؟

ـ ماذا؟

ـ أيعجبك حبك لي؟ بدوت جاداً جداً الآن.. فتساءلت ما إذا كنت سعيداً.

ضحك:

ـ أنا سعيد سعادة من أنقذ أغلى ما عنده بعد أن كاد يفقده.

ـ أما زلت تشعر بالأسى على خسارة القصر؟

ـ لا..

ـ لا؟ لكنك هذا الصباح...

ـ تغيرت كل القيم والمقاييس منذ هذا الصباح. ألا تفهمين؟ كدت أخسرك اليوم. فما تهم أية خسارة أخرى في الدنيا بعدك أنت؟ وما هو هلعي على قصر غراي إذا ما قورن بهلعي على فقدك؟

صمتت لحظات، ثم قالت بهدوء:

ـ اجل.. أفهم هذا.

ثم جذبت رأسه إليها تقبل خده.

ـ تفهمين إذن.. تفهمين أن كل شيء تغير بالنسبة لي؟

ـ اجل يا عزيزي؟

فجأة ركع أمام السرير ودفن وجهه في حجرها:

ـ ما همني قط ما يقوله الناس عني... لكنني الآن أهتم

بأمر. الناس على جميع أنواعهم سيقولون لك إنني لست رجلاً مناسباً لك. وهم على حق، بطريقة ما. فأنا لست بالزوج الطيب.. لكنني أحبك.. أحبك... أرجوك صدقيني.. ولست أدري لماذا تصدقينني، لكن لو شككت في حبي لك، فلن أهتم بأي شيء في العالم.

توقف عن الكلام فجأة كما بدأ. فنظرت إلى رأسه المحني... وفكرت: أهذا هو الرجل الذي قيل عنه إنه متكبر كإبليس؟

ـ لا تقل هذا فأنا أصدقك. أما بالنسبة للناس، فليقولوا ما شاؤوا.. أخبروني عنك الكثير، وتحدثوا أكثر فيما بينهم، حتى قبل أن أراك.. وفوق ذلك كان في ما قالوه بعض الحقيقة وبعض التجني. لكن ما من قول يهمني.. فلقد عرفت عنك أكثر مما تعرفه الدنيا بأسرها، وما عرفته أحببته.

تنفس الصعداء ثم ضحك ضحكة ملؤها الراحة، وعندما رفع نظره إليها فكرت: هل اعتقدت حقاً أن عينيه باردتين؟

وسألها مبتسماً:

ـ ماذا فعلت لأستحق حبك؟

مدت يدها تداعب شعره، فعرف من طريقة مداعبتها أنها ما عادت تلك الفتاة الصغيرة التي سحرته، وأصبحت المرأة التي يحبها الآن.

وقالت له ببطء:

ـ أنت أحببتني.. وهذا كل شيء... إن تصفي الحلقة المقدسة أن تُحِب وتُحَب. ولهذا يبدو كل شيء بسيطاً وكاملاً.

حين شدها إليه ليعانقها، أضافت بنعومة:

www.liilas.com

- قلت لي في اليوم الأول الذي دخلت فيه إلى منزلك إنك تأمل ألا أحس بعد الآن بأنني فتاة غير مرغوب فيها.. ولن أحس هذا الإحساس أبداً.. أعرف هذا الآن.

* * *